فون كريمر

الحضارة الإسلامية

ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية

تعريب

الدكتور مصطفى طه بدر
مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناشر
دار الفكر العربي

فون كريمر

الحضارة الإسلامية

ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية

تعريب

الدكتور مصطفى طه بدر

مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين أما بعد فهذا كتاب قيم كتبه المستشرق الكبير فون كريمر وتناول فيه الكلام على الحضارة الإسلامية الأولى وعنى فيه بصفة خاصة بإبراز ما كان للحضارات المختلفة من أثر فى الحضارة الإسلامية، وقد جعله فى مقالتين باللغة الألمانية ثم جاء المؤرخ الهندى الكبير خدابخش وترجمه إلى الإنجليزية تحت عنوان «الحضارة الإسلامية» فى الجزء الأول من كتابه المسمى "Contributions to the History of Islamic civilisation" وعلق عليه بتعليقات قيمة ثم تممه بملاحق أربعة نشر فيها نصوصا ومعلومات قيمتها العلمية كبيرة.

وقد أعجبنى هذا الكتاب إلى حد بعيد عندما قرأته فى ترجمة خدابخش الإنجليزية وعولت على نقله إلى اللغة العربية حتى يستفيد بما فيه من آراء الباحثون فى تاريخ الحضارة الإسلامية ولكى يرى فيه طلاب تاريخ المسلمين نموذجا للأبحاث العلمية الدقيقة التى يجدر بهم أن يحذوا حذوها إذا أرادوا خدمة العلم خدمة صادقة منتجة.

ويقع كتاب فون كريمر هذا كما ذكرت فى مقالتين الأولى منهما يشير فيها المؤلف إلى ظهور الديانات المختلفة فى غربى آسيا وإلى التشابه الظاهر بين أهالى تلك البلاد فى الأجسام والأخلاق والأفكار ويرد التشابه فى

لأفكار إلى تبادل الآراء بين سكان تلك المنطقة مدة طويلة جدا ، ثم يحاول بعد ذلك أن يبين أن كثيراً من تعاليم الإسلام وطقوسه أخذت عن الديانات التى سبقته مثل اليهودية والمسيحية ودين زردشت والمانوية والبرسية إما مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، ويرد نظرية البعث وفكرة الجنة والنار والجن والحساب وتعذيب الميت فى القبر والصراط إلى أصل قديم كما يرد مناسك الحج إلى ما كان متبعا فى بلاد العرب قبل الإسلام والصيام إلى مثيله عند المسيحيين والصلاة بما يصاحبها من وضوء وسجود وركوع إلى مثيلتها عند طائفة يهودية مسيحية أو إلى المانوية ، ويقول عن قصة المعراج أنها نسجت على منوال إحدى الأساطير المسيحية الخاصة برحلة النبى أشعياً إلى السماء التى ظهرت فى عهد اضطهاد نيرون للمسيحيين ، وبعد هذا يتكلم على تأثر نظم الحكم الإسلامية بالمؤثرات الأجنبية ويشير إلى ما أخــــذه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن النظم الإدارية الفارسية والبيزنطية وما اتبعه الأمويون من نظم الحرب الرومانية وطرقها

ويتكلم فون كريمر فى المقالة الثانية من الكتاب على أثر المسيحية فى آراء الطوائف الدينية التى ظهرت فى العصر الأموى فى سورية مثل طائفة المرجئة وطائفة القدرية ويبين أوجه التشابه بين آراء هذه الطوائف ونظرياتها وبين آراء ونظريات كبار رجال الكنيسة الشرقية وبخاصة فى مسألة الخلود فى النار ونزعة التفاؤل والقول بحرية الإرادة عند الإنسان ، ثم بعد ذلك يتكلم على تأثر الأفكار الدينية الإسلامية فى العراق فى العهد الاموى بمؤثرات فارسية وما كان من تأليه الإمام على بن أبى طالب وأبنائه أو نسبة الأمور الزمنيـة والروحية إليهم بوساطة الشيعة بتأثير فكرة تأليه الملوك عند الفرس ،وظهور

فكرة الرجعة وما يتصل بها من تناسخ الأرواح أو التجسد عند الشيعة أيضا بتأثير اليهودية والمسيحية والمانوية . وبعد هذا ينتقل المؤلف إلى الكلام على تأثر حياة المسلمين الإجتماعية فى صدر الإسلام بالمؤثرات الأجنبية فيذكر طبقات المجتمع فى العراق بعد الفتح الإسلامى ويصف نظام الملكية الذى فرضه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هناك والضرائب التى قررها سواء فى ذلك ضريبة الأرض أو ضريبة الرأس والتكاليف العديدة الأخرى التى فرضت على أهالى البلاد المفتوحة ويبين أثر ذلك فى قيام حالة الكراهية بين طبقات السكان فى تلك البلاد ، ويتكلم على طائفة الموالى وسوء معاملة العرب لهم وما كان لهذا من أثر فى ظهور حزب الشعوبية ومادعا اليه هذا الحزب أولا من المساواة بالعرب ثم بعد ذلك من إدعاء التفوق على العرب ويذكر الأدلة التى ساقها كل من العرب والموالى فى سبيل تدعيم النظرية التى نادى بها ، ويبين ما كان لحركة الموالى من أثر فى اشتداد الثورات ضد الأمويين وعمل الأمويين على القضاء على هذه الثورات وإضعاف الموالى بتعيين الحجاج ابن يوسف الثقفى واليا على العراق ، ولا يدع الكلام على العصر الأموى ومدى تأثر حياة المسلمين فيه بالمؤثرات الأجنبية إلا بعد أن يبين تأثر الحالة العلمية فى العراق بالأثر الأجنبى وتقدم علوم اللغة والنحو بصفة خاصة فى مدرسة البصرة وظهور بعض الإتجاهات العلمية والفلسفية أيضا فيها ويشير إلى بعض مظاهر الترف فى حياة المسلمين والخلفاء فى العهد الأموى بتأثير الأجانب وبخاصة الفرس والروم سواء أكان ذلك فى استخدام الخصيان أو فى مجالس الشراب وسماع الأغانى والموسيقى وارتداء الملابس الفارسية تدريجيا .

وإذا ما بلغ فون كريمر العصر العباسى يتكلم على ازدياد نفوذ الفرس

وبلوغهم أعلى المناصب المدنية والحربية فى الدولة العباسية رغم تذمر العرب وابداء سخطهم وعلى جعل الزى الفارسى زيا رسميا والإحتفال بالأعياد الفارسية ، ثم يتناول الكلام على تاثر الأفكار الدينية عند المسلمين فى العصر العباسى بازدياد النفوذ الفارسى وبتسرب الأثر الهندى نتيجة للتبادل التجارى ويشير إلى نظرية حرية الإرادة التى ظهرت أولا فى دمشق وكيف أنها تطورت فى البصرة فى العصر العباسى على أيدى المعتزلة ويتكلم على حركة الزنادقة ويبين أن الزنادقة الأول كانوا هم المانوية ويشير إلى سوء معاملة الخلفاء للزنادقة وإلى تساهل المامون معهم وإلى أن التزندق كان علامة التحضر فى ذلك الوقت ثم إلى تحلل الأخلاق وعدم التمسك بالدين الذى صحب إزدياد النفوذ الفارسى ويذكر أن هذا التحلل الأخلاقى يبدو فى أشعار أبى نواس ، ثم يتكلم على دراسة العرب فى العصر العباسى لكتب اليونان وما كان لذلك من أثر فى ظهور المدارس الفلسفية العربية ومذاهب المتكلمين ويتكلم على التصوف كما يبدو فى نظم الدراويش ويرجعه إلى أصل هندى وكل ذلك بطريقة علمية منظمة قوامها البحث والتقصى والربط بين النتائج والأسباب .

وقد كتب خدابخش مقدمة طويلة لهــذا الكتاب عندما ترجمه إلى الإنجليزية . وتعتبر هذه المقدمة جزءا متمما للكتاب له قيمته التاريخية ، وذلك لأن خدابخش يحاول فى هذه المقدمة أن يكمل أبحاث فون كريمر الخاصة بتاثر الإسلام بالمسيحية ويشير إلى بعض آيات ومواضع من الإنجيل ويبين أثرها فيما كتب عن النبى صلى الله عليه وسلم وما نسب إليه من بعض الأحاديث وفى أقوال الفقهاء كما يبين أن بعض التعبيرات والإصطلاحات والأفكار الإسلامية ترجع إلى أصل مسيحى ، وينتقل أيضا إلى الناحية الإجتماعية ويشير إلى إدخال الموسيقى والغناء فى المجتمع الإسلامى نتيجة للتاثر بالفرس

ويشير إلى شرب الخمر وصنع التماثيل وموقف المسلمين فى أسبانيا إزاء هذه الأمور ، وليس هذا فحسب بل إنه يشير إلى الأثر الذى تركه الإسلام فى المسيحية فى الجهات التى احتك بها ويذكر بعض حركات إلحادية قامت فى أسبانيا ويرجعها إلى الأثر الإسلامى كما يشير أيضا إلى حركة تكسير الأصنام التى قامت فى الدولة البيزنطية بتأثير الإسلام ، ويتكلم خدابخش أيضا فى مقدمته على الشيعة والخوارج ويبين كيف نمت هذه الطوائف وكيف إزداد خطرها حتى هدد الدولة الأموية ويتكلم على معاملة الأمويين للموالى وأثرها فى انضمام الموالى إلى الحركات المعادية لدولتهم وعلى تطور حركة الشعوبية التى قام بها الموالى ومالقيته من معونة العباسيين وبعض أصحاب الدعوات مثل القرامطة وما انتهى إليه أمر الموالى من السيطرة على الخلافة فى العصر العباسى

وقد كتب خدابخش تعليقات عديدة على كتاب فون كريمر فسر فيها كثيرا من المسائل وشرح كثيرا من الأمور الغامضة وأشار إلى مراجع عديدة فى بعض الأحيان ، ورد على آراء المؤلف التى لا يوافق عليها ، وكتبت أنا أيضا عدة تعليقات أردت بها شرح بعض المسائل التاريخية التى لم يتناولها خدابخش كما بذلت مجهودا كبيرا فى سبيل الحصول على النصوص من مصادرها الأصلية ، ولكنى عندما رأيت أن ترجمة كتاب فون كريمر يقصد بها قبل كل شىء إبراز آرائه الخاصة فى كثير من المسائل التى وصل إليها بعد بحث طويل دقيق وأن كتابة تعليقات خدابخش وتعليقاتى فى هوامش الكتاب تطغى عليه وتصرف القارىء عن آراء فون كريمر التى ما ترجمت هذا الكتاب إلا لأبرازها جمعت تعليقات خدابخش تحت عنوان خاص كما جمعت أيضا تعليقاتى تحت عنوان خاص ووضعتها فى آخر الكتاب ولم أترك فى الهوامش إلا ما كتبه

فون كريمر فى كتابه الأصلى وبعض تعليقات قصيرة لخدابخش ولى لاترجم الكتاب ولاتطغى عليه وكذلك بعض إشارات إلى التعليقات الموجودة فى آخر الكتاب ، وقد وضعت فى أول الكتاب فهرسا مفصلا بالموضوعات التى وردت فيه حتى تسهل قراءته وتتيسر الإستفادة منه .

على أنى قبل أن أختم هذه المقدمة أحب أن أوجه نظر القارىء الكريم إلى أن بالكتاب إشارات كثيرة إلى أن الإسلام استمد الكثير من مبادئه وطقوسه من الديانات السابقة له ، وفى هذه المسألة يجب التفريق بين عدة أمور : أولها ما يتعلق بما جاء فى القرآن الكريم وفى هذا لا يمكن قبول رأى المؤلف إطلاقا لأننا نعتقد أن القرآن كتاب الله نزله على نبيه وليس من وضع النبى كما يرى المؤلف ، وقد نتلاقى مع المؤلف فى بعض الأمور التى تتشابه فى القرآن وفى الكتب المنزلة الأخرى لأننا نعتقد أن هذه الديانات كلها من نبع واحد وقد جاء الإسلام مكملا لها فى بعض النواحى وإذا كان فى تلك الديانات ما يخالفه فان ذلك يرجع إلى ما أدخل عليها من أمور ليست منها فى شىء أما أخذ القرآن عن المانوية أو البرسية فهذا لا يمكننا قبوله بحال . وثانى هذه الأمور ما يتعلق بما جاء فى الحديث الشريف وأخذه عن الديانات السابقة ، ونحن هنا لا يصعب علينا أن نوافق المؤلف فيما تثبت صحته الأبحاث العلمية الدقيقة لأن النبى صلى الله عليه وسلم على الرغم من أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب قد كان ذكيا إلى أبعد حدود الذكاء وهبه الله القدرة على الاستفادة من كل ما له قيمة ، وقد كانت فى بلاد العرب طقوس خاصة بالحج لا نستبعد أن يكون قد استفاد منها فى وضع طقوس الحج الإسلامى ، كما أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الشام عدة مرات للتجارة ولا يبعد أن يكون قد

اتصل ببعض النصارى وأخذ عنهم بعض العبارات أو بعض التقاليد الدينية وعند ما نزل عليه الإسلام وتركت له الحرية فى تفسيره للناس وتنفيذ المواضع العملية فيه تذكر ما رأى من قبل وما سمع ، أضف إلى ذلك أن مركز المانوية كان فى بابل على ما يذكره ابن النديم صاحب الفهرست وكان أتباعهم كثيرين منتشرين فى العالم الشرقى ولا يبعد أن يكون النبى قد رأى بعضهم ، هذا فضلا عن أن المسيحية واليهودية كانت قد دخلت فى بلاد العرب وأهل هذه الديانات كانوا على علم بالديانات الأخرى التى سبقتهم مثل المجوسيين والمانوية وربما كانوا الواسطة فى نقل بعض ما فى هذه الديانات إلى النبى وثالث هذه الأمور ما يتعلق بما جاء فى الكتب الدينية التى وضعها المسلمون فى العصور المتأخرة أو آراء الطوائف الدينية ونحن لا يخالجنا شك فى إمكان تأثر هذه الكتب وهذه الطوائف بآراء الديانات الأخرى بل وبألفاظ الكتب الدينية المختلفة أحيانا .

هذا وقيمة كتاب فون كريمر العلمية عظيمة جداً ، وإذا كان هذا العالم الجليل قد حاول أن يرد كل شىء فى الإسلام إلى نظائره فى الديانات الأخرى أو النظم السابقة فيجب ألا يعزب عن بالنا أنه غير مسلم وأنه ينظر إلى القرآن كما ينظر إلى أى كتاب آخر ولا يرى حرجا فى أخضاعه لأصول النقد ولا يجد ما يمنعه من الشك فيما جاء به أورده إلى كتب أخرى سبقته ، وفى استطاعتنا أن نأخذ عنه الآراء التى لا نجد حرجا فى قبولها كما فى استطاعتنا أن نرد عليه فى كتاباتنا وأبحاثنا وهو من هذه الناحية إذن يمكن أن يعتبر مصدر خير وبركة وعاملا من عوامل النشاط العلمى ؟

الجيزة فى ١٥ /٢/ ١٩٤٧ — مصطفى طه بدر

محتويات الكتاب

تعليقات المترجم

مقدمة خدابخش

أقدم الآن للجمهور ترجمة انجليزية لكتاب فون كريمر المسمى « تاريخ الغزوات الثقافية في بلاد الاسلام » ، ويعد البحث الذى أمامنا من أحسن دراسات فون كريمر التاريخية وأعظمها قيمة ، ففضلا عن أنه بحث سليم عميق لا تمله النفس ملىء بالأفكار قبل كل شىء فهو يعتبر فريداً من ناحية ما يتسم به من دقة العلم وسعة الأفق .

«وموضوع فون كريمر الأساسى هو أثر اليهودية والمسيحية والپرسية [1] والمانوية فى الاسلام» وهو يقوم على العلم الصحيح ولا أثر فيه للجدل الذى منشؤه الضغينة والحقد كما أنه كما نتوقع خال من التحزب خلواً تاماً ومن التحامل والميل مع الهوى ، ويبسط فيه فون كريمر حقائق التاريخ ولا يقف موقف المحامى عن أحد الأحزاب . والعامل الأساسى فى إخراج مؤلف المستشرق الكبير الذى تحت أيدينا ومؤلفاته الأخرى أيضاً هو البحث عن الحقيقة ، وهو لم يحصر اهتمامه عند كتابة هذا البحث فى دائرة الموضوعات الدينية فحسب بل تناول بالعبقرية ذاتها المشاكل الاجتماعية التى اضطرب لها قلب كثير من الأجيال المسلمة وتعثرت أقدامها .

وقد مضى على ظهور هذا البحث حوالى خمسين سنة ولكنه ليس له نظير رغم التطور المستمر فى جميع فروع العلوم الشرقية .

ولن يجد القارىء هنا تاريخ أصل الطوائف الاسلامية ونموها فحسب

---

(١) راجع التعليق رقم ١ من تعليقات المترجم

بل سيرى أيضاً الحياة الاجتماعية للمسلمين الأول والمتأخرين ملخصة أمام عينيه ، وسيستطيع أن يتتبع خطوة خطوة التغييرات التى طرأت على أبناء الصحراء والخطوات التدريجية العظيمة الأثر التى خطوها مبتعدين عن العادات القديمة الصارمة التى لا تلين وعن أسلوب الحياة القديم والتحول البطىء الصامت تحت تأثير الترف والأفراط الفارسى والبيزنطى واضمحلال مبادىء الطهر والعفاف والمساواة والأخاء التى كانت شائعة عند المسلمين الأول ، وظهور نظام حكم يمكن أن يوصف بحق بأنه ملكية جامعة للضرائب لا تهمها مصلحة رعاياها وتدوس مشاعرهم تحت أقدامها ، وأخيراً قيام ونمو الحركة المعادية للعرب أى الشعوبية التى نجحت فى القضاء على الحكم العربى والحكومة العربية ، ولا يدعى الكاتب أنه أتى بجديد فى المقدمة التالية ، فالحقائق والنتائج التى فيها مستمدة من مؤلفات رواد علوم الشرق العظام أمثال جولد زيهر وفلهاوزن وبراون وغيرهم ، والذى يستطيع الكاتب أن يدعيه بحق هو أنه جعل بعضاً من خير أبحاث هؤلاء العلماء فى متناول الذين لا يعرفون اللغة الألمانية وألف بين عدد من الحقائق الخاصة بالتاريخ الاجتماعى للعهد الاسلامى الأول ، ولما كان الكاتب قد ذكر كثيراً من الشروح فإنه لم ير من الضرورى أن يذكر فى كل مناسبة المصدر الأصلى الذى أخذ منه ملاحظاته .

وإن معالجة فون كريمر التى لا تسامى لموضوع أثر المسيحية فى أصل الطوائف الاسلامية الأولى ونموها لتدع القليل الذى يمكن إضافته ولكن الكاتب لا يستطيع أن يمر بهذا الموضوع دون أن يلاحظ أن فون كريمر قد بالغ بعض المبالغة فى تحمسه فى إظهار أثر المسيحية فى الاسلام ، فقد يكون من الخطل إنكار تأثير المسيحية الشديد فى الاسلام ولكن فى الوقت

ذاته يكون أيضاً من التهور التأكيد بأن جميع الطوائف الأسلامية الأولى ترجع فى أصلها ووجودها إلى الفكر المسيحى المعاصر والفلسفة المسيحية المعاصرة ، فمثلا إذا أخذنا فرقة المعتزلة نجد أن أحدث الأبحاث تقرر بصفة حاسمة أنها ظهرت بعيدة كل البعد عن الفلسفة المسيحية ولو أن الفلسفة المسيحية قد لعبت دوراً هاماً فى نموها فيما بعد [١] ، ومن جهة أخرى يرجع أصل المرجئة إلى ما كان من ضرورة استنباط وسيلة للعيش على وفاق مع الحكم الأموى ، وهذه النظرة إلى أصلهم تقوى وتتحقق بما حدث من زوال المرجئة بصفتهم فرقة مستقلة بسقوط الدولة الأموية [٢] . وقبل أن نتناول بالتطويل العوامل الاجتماعية والدينية التى ساعدت على القضاء على الحكم العربى سنتكلم باختصار على مظاهر التأثير المسيحى الأخرى فى الأسلام التى وإن كانت لها أهمية مساوية لغيرها إلا أنها لم تجد مكاناً ما فى بحث فون كريمر .

ولن يفكر أحد من طلاب التاريخ فى مناقشة القول بأن الأسلام تأثر تأثراً كبيراً بالمسيحية فى عصوره المتأخرة أو الاعتراض عليه ، ولكن الأمر العجيب هو أن يكون الأسلام فى أيامه الأولى قد بدأ يستمد الأفكار والمشاعر المسيحية حقا ، فضلا عن تلك الأفكار المسيحية التى تسربت إلى الأسلام عن طريق الرهبان وأنصاف المتعلمين ممن دخلوا فى هذا الدين فإننا نجد مجموعة كبيرة من الأفكار والتعبيرات المسيحية فى الكتب الأسلامية التى تنم عن بعض العلم إن لم يكن العلم الواسع بمحتويات الكتب المسيحية ،

(١) Steiner Die Mu 'tazilten, p. 5., shahrastani, Haarbrücker's tr, Browne, Lit. Hist. of Persia, pp 281 seq, pp. 386seq, (راجع التعليق رقم ١ من تعليقات خدابخش)

(٢) Goldziher, Mohammedanische Studien, vol. II, p. 91

وسيسترعى نظر حتى من يدرس حياة محمد دراسة سطحية أن فى سيرته كما كتبها أصحابه توجد دائماً محاولة لرسم صورة له لا تشبه الصورة المسيحية للمسيح ، ومع أن محمداً كان لا يمل تنبيه أصحابه إلى أنه رجل له من العواطف مالهم فإنهم مع ذلك نسبوا إليه القدرة على الاتيان بالمعجزات وعمل الأمور الخارقة للعادة،وقد اتخذت المعجزة الواردة فى إنجيل القديس يوحنا(الأصحاح الثانى ١ - ١١) [١] نموذجا لعدد من هذه الأساطير الاسلامية التى حيكت حول حياة النبي فى زمن متقدم [٢] وبذل القاضى المغربى عياض (القرن الخامس) مجهوداً عظيما فى جمع عدد كبير من هذه الأساطير ، ومع أنه كان هناك خلاف فى ذلك الوقت حول صحة الكثير منها فإنه يختم كلامه بقوله : « وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة رواه عنهم أضعافهم من التابعين ثم من لا ينعد بعدهم وأكثرها فى قصص مشهورة ومجامع مشهودة ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها . » [٣] .

وإن الغرض الذى اخترعت من أجله هذه المعجزات — وبكثرة زائدة كما بينا — لمن الوضوح بحيث لا يمكن أن يخفى على أحد .

ومع ذلك فإن الذى يسترعى الانتباه أكثر من هذا هو الأثر الذى تركته العبارات المهذبة الواردة فى الأنجيل فى تطور الأفكار الاسلامية التى تبدو فى الأدب المتصل بالحديث .

ويذكر بين من سيظلهم الله يوم القيامة « رجل تصدق بصدقة فأخفاها

---

(١) راجع تعليق رقم ٣ من تعليقات المترجم — المترجم

(٢) لقد اعتمدت فى هذه المقدمة على الدكتور جولدزيهر Goldziher, vol. II, p 382

(٣) الشفاء طبع حجر بالقسطنطينية ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٥٢

حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه . »[١] ويعترضنا أيضاً فى الحديث الشريف هذا القول « دع ما لقيصر لقيصر » (انجيل متى إصحاح ٢٢ رقم ٢١) ولكن بمعنى آخر فى الحقيقة[٢] فمحمد (صلعم) فى أحد أقواله يتنبأ لأصحابه بأنه بعد موته سيأتى زمان يرون فيه أموراً منكرة وعند ما يسألونه عما يفعلونه إزاء حكامهم يقول لهم « أدوا إليهم (أى إلى الحكام) حقهم واسألوا الله حقكم . »[٣] . أضف إلى ذلك أن عبارات الانجيل التى تشير إلى أفضلية الفقراء على الأغنياء وإبعاد الأغنياء عن مملكة السماء — تلك الفكرة التى تتعارض كل التعارض مع فكرة العرب عن الحياة — تجد صدى مستمراً لا ينقطع فى أحاديث محمد (صلعم) وأحاديث الفقهاء المسلمين المتقدمين . ومن أمثلة ذلك الحديث الذى ينسب إلى النبى قوله « اضطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واضطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء »[٤]، ومن أمثلة ذلك أيضاً الحديث الذى يقول « سيدخل الأغنياء الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام . »[٥] والحديث الآخر الذى يقول : « مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس ما رأيك فى هذا فقال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع

---

(١) الموطأ جـ ٤ ص ١٧١ باب الزكاة رقم ١٥ يقابله المحاربون رقم ٥ ومسلم جـ ٤ ص ١٨٨ يقابله الأحياء جـ ٢ ص ١٤٧ . وفى رواية أخرى «ما تنفق» بدل « ما صنعت » ، apud Goldziher, p. 384

(٢) صحيح البخارى باب الفتن ٢ و apud Goldziher ـ (راجع تعليق ٤ من تعليقات المترجم — المترجم) .

(٣) يرى المفسرون أن هذا يشير إلى دفع الضرائب

(٤) صحيح البخارى باب الرقاق ٥١ تقابل الأغانى جـ٢ ص١٩١ والقسطلانى جـ٩ ص٢٨٧ وصحيح البخارى باب الرقاق ١٦ والموشى طبعة Briinnow ص ١١١ و apud Goldziher

(٥) فخر الدين الرازى : المفاتيح ص٥٣٨ و apud Goldziher, vol. II, p. 385.

أن يشفع ، قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيك فى هذا ، فقال : يارسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حرى إن خطب ألا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال ألا يسمع لقوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا . » [١] « رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة . » [٢]

وهناك حديث يروى عن حنظلة العبشمى وهو « لا تتلاقى جماعة ويذكرون اسم الله إلا ويناديهم صوت من السماء : قوموا فقد غفرت لكم وجعلت ذنوبكم حسنات . » [٣] ونحن لا نستطيع أن نتناسى أثر انجيل متى فى هذا القول [٤] (انجيل متى الاصحاح ٩ رقم ٢ : ٧) ، وكذلك يبدو تعظيم الأبله الوارد فى انجيل متى [٥] (الاصحاح الخامس رقم ٣) فى الحديث الإسلامى الذى يقول « سيؤلف البله معظم سكان الجنة » [٦] ، وقريب جداً مما ورد فى انجيل متى [٧] (الاصحاح العاشر رقم ١٦) الحديث الذى يشير إلى صحابة الرسول بقوله : « كونوا بلها كالحمام . »

ومن أوضح الأمور وأبعدها عن الخطأ القول بأن معنى كلمة صلاة المستعملة فى الحديث مأخوذ عن التوراة ، ويتضح جليا أن المجتمعات

---

(١) صحيح البخارى باب الرقاق ١٦ و Apud Goldziher

(٢) صحيح البخارى باب الفتن ٦ والترمذى جـ ٢ ص ٣١ و Apud Goldziher

(٣) ابن حجر جـ ١ ص ٧٤٤

(٤) راجع تعليق ٥ من تعليقات المترجم — المترجم

(٥) راجع تعليق رقم ٦ من تعليقات المترجم — المترجم .

(٦) اليعقوبى حـ ٢ ص ١١٥ يقابله الأضداد ٢١٤، Goldgiher p. 386

(٧) راجع تعليق رقم ٧ من تعليقات المترجم — المترجم

الإسلامية الأولى كانت عندها فكرة غامضة عن أصل الصلاة إذا علمنا أنهم كانوا ينسبون بعضها إلى موسى ، أضف إلى ذلك أن أبا الدرداء ذكر عن النبي أنه قال : (١) « من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له فليقل ربنا الله الذي فى السماء تقـــدس اسمك أمرك فى السماء (٢) والأرض كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ . » (٣)

ولم تتسرب من الانجيل إلى الإسلام النصائح التى تبعث على السمو فحسب أو كما يتبين من المثل الأخير الطقوس الدينية بل إن التعبيرات نفسها كانت مشتركة بينهما إلى حد كبير ، وأوضح مثـل لهذا الكلمة التى حملت معنى شهيد (٤) ، حقيقة إن شهيد كلمة عربية قديمة جداً ولـكن استعمالها بمعنى المضحى يرجع إلى تشابهها فى النطق والمعنى لكلمة سَهد Sahda السوريانية التى تترجم بها دائماً كلمة الشهيد فى الانجيل ، وقد كان استعمال كلمة شهيد بمعنى المضحى بتأثير المسيحية ، وهذه الكلمة تصبح اصطلاحا فى الجزء من القرآن الذى نزل أخيراً فقط ، وكلمة شهداء التى وردت فى بعض الآيات القرآنية تدل بوضوح على جماعة من المسلمين ليسوا هم الضحايا ولـكنهم هم المسلمون الذين يؤمنون بالله والرسول (السورة الرابعة آية رقم ٧١ والسورة رقم ٣٩ آية رقم ٦٩ والسورة رقم ٥٧ آية ١٨) (٥) ، والأثر المسيحى الذى بمقتضاه

---

(١) Goldziher II ‘ p ˙ 386 (راجع تعليق ٢ من تعليقات خدا بخش — المترجم)

(٢) لم تذكر هنا هذه العبارة « مملكتك تأتى ومشيئتك هى النافذة » .

(٣) أبو داود جـ ١ ص ١٠١ و Apud Goldziher. p. 387

(أنظر كتاب أبى داود بهامش شرح الزرقانى على الموطأ جـ ٤ ص ١٥ — المترجم)

(٤) Apud Goldziher. II. p.387 (راجع تعليق ٣ من تعليقات خدابخش ـ المترجم)

(٥) راجع تعليق ٨ من تعليقات المترجم — المترجم

خرجت كلمة شهيد عن معناها الأصلى وهو الذى يشهد شهادة الإسلام وأصبحت بمعنى المضحى بدأ يعمل عمله فى الجزء من القرآن الذى نزل أخيراً ، ومنذ ذلك الوقت أصبح استعمالها بمعنى المضحى شائعاً . وإتماماً للفائدة يصح أن نضيف هنا بعض أمثلة أخرى لألفاظ من الانجيل فى لغة المسلمين الدينية ، ومما يستحق الذكر أن اصطلاح الخشبة والقذى الوارد فى انجيل متى (الاصحاح السابع رقم ٥) [١] تسرب منذ وقت متقدم جداً إلى الأدب الإسلامى [٢] ، أضف إلى ذلك أن أثر انجيل متى (الاصحاح الخامس رقم١٣) [٣] بدا فى حديث خرافى ينسب إلى النبى قوله عن أصحابه : « مثل أصحابى فى أمتى كالملح فى الطعام ولا يصلح الطعام إلا بالملح . » [٤] ، وكذلك يتردد صوت انجيل متى (الاصحاح السابع رقم ٦) [٥] فى هذه العبارة « إن مثل من يجود بالعلم على غير أهله كمثل من يرمى الجواهر أمام الخنزير . » ، ويبدو الاصطلاح الموجود فى انجيل متى (الاصحاح السادس عشر رقم ٢٤) [٦] فى مجموعة الاصطلاحات الإسلامية بل وفى علم الحديث ولو أنه ليس غريباً عن الأدب العبرانى الحديث .

وأستطيع أن اضيف هنا أن فكرة الكفارة المسيحية أدخلت إلى الإسلام فى وقت متقدم ، ويروى ابن خلكان [٧] أن الأمير عبد الرحمن

---

(١) راجع تعليق ٩ من تعليقات المترجم — المترجم

(٢) Z.D.M.G. , XXXI p. 765 والأغانى ج ١٤ ص١٧١ سطر ١٥ والدميرى ج ٢ ص ٧٠ و Goldziher Vol . II. p 391

(٣) راجع تعليق ١٠ من تعليقات المترجم — المترجم

(٤) البغوى : مصابيح السنة ج ٢ ص ٤ Apud Go dz

(٥) راجع تعليق ١١ من تعليقات المترجم — المترجم

(٦) راجع تعليق ١٢ من تعليقات المترجم — المترجم

(٧) ج ٤ ص ٣١ (ج ٣ ص ١٧٤ طبعة مصر سنة ١٢٩٩ — المترجم)

خالف أمر الرسول الخاص بتجنب النساء أثناء شهر الصوم وسأل القضاة عما يفعله لأظهار توبته والتكفير عن ذنبه فقال له القاضى يحيى بن يحيى « يكفر ذلك بصوم شهرين متتابعين . »

وإذا كانت معلومات المسلمين الأول عن المسيحية غير وافية فإن من الجلى أنهم فى الأزمنة المتأخرة عرفوها معرفة كاملة ، ويبدو أن ابن حزم وزير عبد الرحمن الخامس (ديسمبر سنة ١٠٢٣ — مارس سنة ١٠٢٤ م) كان على علم تام بتعاليم المسيحية لأنه يقول : « يجب أن لا نعجب حين نرى الناس يتمسكون بالخرافات ، أنظر إلى المسيحيين فإنهم كثيرون إلى حد أن الله وحده هو الذى يعرف عددهم ومن بينهم أناس على قدر كبير من الفطنة وأمراء على قدر كبير من الشرف ومع ذلك فإنهم يعتقدون أن ثلاثة واحد وواحد ثلاثة وأحد الثلاثة هو الأب والآخر الابن والآخر الروح والأب هو وليس هو الابن والرجل هو وليس هو الله والمسيح هو الله فى كل شىء ومع ذلك فهو ليس مثل الله . والموجود الدائم مخلوق بل إن إحدى فرقهم التى يسمون أتباعها اليعاقبة والتى يبلغ عددها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق نفسه عذب وصلب وقتل حتى أن العالم ظل بدون سيده ثلاثة أيام . »[1].

وتبدو بوضوح الآثار المسيحية والفارسية فى الناحية الاجتماعية ، فالخمر والموسيقى والثياب الحريرية الجميلة[2] شاع استعمالها ، ويرجع دخول الموسيقى إلى أسرى الحرب من الفرس الذين وفدوا إلى مكة بكثرة[3] وعلموا العرب

---

(١) Dozy, Musulmans d, Esp agne, III, p. 342.

(٢) De Goege, Frag. Hist. Arab. Vol. I., p. 40

(٣) Von Kremer ‘vol • I ,pp ˙ 40 — 41. والأغانى ج ١ ص ١٩٤

(٤) راجع تعليق ٤ من تعليقات خدا بخش المترحم

الغناء على نغمات الآلات الموسيقيـة وهى الدف والطنبور والناى والعود . ويذكرون أن ابن مسجح كان أول من أدخل الموسيقى الفارسية إلى بلاد العرب ويقول المسعودى [١] إنه منذ عهد يزيد كان حب للموسيقى قد تفشى إلى حد كبير جدا ، ونحن نجد أن مكة والمدينـة قد أصبحت فى هذا الوقت مركزا للموسيقى والغناء وكان منهـا يتخرج الموسيقيون اللازمون لبلاط دمشق . ويتناول فون كريمر بإسهاب الكلام على تاريخ دخول وتطور عادة شرب الخمر والغناء فى بلاط دمشق ، وعلى ذلك فانه من الواجب على أن أضيف إلى ذلك فقط أنه بين خلفاء أسبانيا يبدو أن الحكم الأول كان أول من شرب العصير المحرم وقد حاول سميه الحكم الثانى (٩٦١ — ٩٧٦ م) أن يوقف هذا التيار بأشد الوسائل ولـكن نجاحه كان قليـلا على نحو ما لاقى عمر بن عبد العزيز فى دمشق .

وإذا كان تحريم شرب الخمر لم يجد من يراعيه فـكذلك كان الحال فيما يتعلق بتحريم صنع التماثيل الانسانية ، وقد راعى المسلمون فى الشرق على ما يظهر أمر تحريم تصوير الـكائنات الحية تصويرا دقيقا أما فى أسبانيا الاسلامية فقد حظى هذا التحريم باهتمام قليل ، ونحن نجد أنه أقيم تمثـال للزهراء زوجة عبد الرحمن فى مدينة الزهراء وكان فيها قصر بناه عبد الرحمن الثالث تـكريما لزوجته المحبوبة ، وتوجد تماثيل لحيوانات على البرك كما يوجد أسد على القناة المعلقة ، ونسمع أيضا عن تمثال على باب قرطبة [٢].

---

(1) Apud Weil, vol. I p. 338, note I

(٢) انى مدين لصديقى مستر T·A.Archer بتوجيه نظرى إلى كتاب Haine وعنوانه Christianity and Islam in Spain وهو كتاب صغير من أعجب الـكتب أنظر للاستزادة Spirit of Islam ,p .146 و Histoy of the Saracens تأليف Mr · Ameer Ali

ولا عجب إذا كان الاسلام والمسيحية قد تأثرا وأثرا فى بعضهما البعض فانهما قد عاشا قرونا عديدة جنبا إلى جنب ، وليس هناك نظام دينى مهما كان جامدا يستطيع أن يتحاشى التأثير البطىء الصامت للنظم الأخرى التى قد يحتك بها ، ويرجع إلى مثل هذه التأثيرات أصل طوائف دينيـة وحركات إلحادية لا عداد لها بل ونظم دينية مستقلة وجهت مقادير الانسانية وأثرت فيها منذ فجر التاريخ ، وقد نشأت البابية نتيجة لاختلاط الاسلام بدين زردشت ، وليس مذهب السيخ سوى مزيج من البرهمية ودين النبى العربى .

وإن حركة برهما سمج Brahma-Samaj تلك الحركة الدينية القوية التى نشأت فى البنغال منذ عهد قريب تعتبر بحق مثلا نموذجيا لأثر احتكاك عدة نظم دينية هى البرهمية والمسيحية والاسلام ، وهى ليست مجرد ظاهرة عابرة بل إن علامات الحياة والحيوية لتبدو منها كما ينتظر لها مستقبل زاهر .

وفى مقابل بحث أثر المسيحية فى الاسلام نستطيع هنا أن نلقى نظرة سريعة على أثر الاسلام فى المسيحيـة ، على أنه يجب على الكاتب أن يتكلم بمنتهى الحيطة والحذر لأن الموضوع جديد ومتشعب النواحى ومن الصعوبة بمكان ولبحث هذا الموضوع أستميحكم عذرا إذا كنت سأبتعـد بعض الشىء فانه من الضرورى أن أشير إلى تاريخ أسبانيا أو بلاد الغالة القوطية حيث ارتفعت شمس العلوم الاسلامية إلى الذروة (١).

ومن المحتمل أن تكون أسبانيا منذ عهد متقدم جدا بسبب اتصالها بالاسلام وما صحب ذلك من ضرورة وجـود أثر إسلامى « قد اشتهرت بالتجديد فى

---

(١) أنظر Haine, Christianiy and Islam in Spain, pp. 116 et seq.

تعاليم الدين الحق وطقوسه بل وبالتباهى ببراعتها فى هذه الناحية » ، ولنتناول الآن الكلام على حركات الالحاد المختلفة التى تبدو فيها آثار إسلامية ، فمن المقرر أنه فى غضون القرن الثامن قامت حركة إلحادية فى سبتمانيا (بلادالغالة القوطية) تنكر الحاجة إلى الاعتراف، للقسيس بدليل سديد لا يشوبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو أن الناس يجب أن يعترفوا لله وحده ، ومن المعروف جيدا أن الاسلام ليس فيه قسس وبذلك ليس فيه اعتراف ، ومن الواضح أن هذه الحركة الالحادية من أثر الأفكار الاسلامية التى لم يستطع المسيحيون فى سبتمانيا أن يسلموا منها تماما ، ومع أن البروتستانت يرفضون نظرية الاعتراف فاننا لا نستطيع أن نتجنب التفكير فى أن الحركة الالحادية التى نحن بصددها بما فيها من عداء للفكرة الكاثوليكية الحقة وقرب للاسلام تدين بظهورها للأفكار الإسلامية المنتشرة .

على أن أهمية هذه الحركة الالحادية تتلاشى أمام رأى ميجيتوس Migetus الالحادى فى التثليث ، وقد يبعد بى المزار إذا أنا بحثت آراء ميجيتوس بحثا مستفيضا ويكفى أن أقول إنه ينكر فعلا ألوهية الكلمة وبذلك يقترب من الاسلام [١]، وأهم الحركات الالحادية وأشهرها هى الحركة الخاصة بالتبنى وأثر الاسلام فيها ليس واضحا فحسب بل إنه معترف به أيضا من كتاب مشهورين كتبوا عن تاريخ الكنيسة ، ويرى مريانا Mariana المؤرخ الأسبانى وبارونيوس Baronius محامى الكنيسة الرومانية أن غرض الملحدين المحدثين كان « تمهيد الطريق بالحط من شخصية المسيح للاتحاد بين المسيحيين

---

(١) Haine, christianity and Islam in Spain, pp. 117-118.

والمسلمين ، [١] وبالاختصار فان النظرية الجديدة كانت تقول بان المسيح فيما يختص بناسوته ابن الله بالتبنى [٢].

ولم تكن حركة تكسير الأصنام [٣] بما جرته من أشأم النتائج على الامبراطورية البيزنطية خالية كل الخلو من الأثر الاسلامى ، ويمكن أن نذكر بهذا الصدد أن كلوديوس أسقف تورين (المعين سنة ٨٢٨ م) الذى قام بطمس وإحراق وإزالة جميع التماثيل والصلبان فى أسقفيته ولد وتربى فى أسبانيا الإسلامية [٤].

ولا شك فى أن كلوديوس رأى فى الإسلام والمسلمين الشيء الكثير الذى نال تقديره وإعجابه . وتوجد لدينا عبارة صريحة لأحد معارضيه يقول فيها « إن اليهود امتدحوه واعتبروه أعقل رجل بين المسيحيين وهو من ناحيته امتدحهم وامتدح المسلمين كثيرا . » [٥]، هذا وأثر الإسلام فى المسيحية موضوع يتطلب بحثا مستقلا وأنا لم أحاول هنا أكثر من تقديم ملخص بسيط ، والأرض لا تزال بكرا ، ويتضح مما ورد فى هذا البحث القصير أن أية دراسة مقارنة للقرآن والأنجيل والحديث ومؤلفات آباء الكنيسة وتاريخ الحركات الدينية فى المسيحية والخلافة تثمر بوفرة تعوض كل جهد يبذل فيها ، ولن تكون نتيجة هذه الدراسة سوى تأكيد الحقيقة الثابتة وهى أن القلب الإنسانى يسعى دائما فى سبيل الحصول على شيء أشرف وأسمى وأن العقيدة التى تسد حاجات

---

(١) Haine, christianity and Islam in Spain .,p. 120

(٢) Ibid. ,p.124 Kb, Hl.

(٣) راجع تعليق ١٤ من تعليقات المترجم — المترجم .

(٤) أنظر المقرى ج ٢ ص ٤٤٦ و . Finlay, Hist. of Greece, vol. II. p. 75

(٥) Finlay,v,p. 396, apud Haine s Ghristianity and Islam in Spain

ومطالب عصر من العصور تصبح عقيمة بالية فى عصر آخر(١) وأن الله يكلم الناس « فى أزمنة مختلفة وبأساليب متباينة . »" ويدين الإسلام بالشىء الكثير للمسيحية كما أن المسيحية تدين بالشىء الكثير للاسلام ، ولا يمكن أن يكون فى ذكر هذه الحقيقة ما يمس أى دين منهما بسوء ما داما قد عكسا عن ضوء واحد (٢).

"وإن الإسلام الصحيح هو المسيحية الصحيحة ورسالتهما واحدة" وفى لغة الرسول جيمس « الدين الصحيح الطاهر فى نظر الله والآب هو زيارة اليتامى والأرامل فى وقت الشدة وحفظ النفس من أن تدنسها الشهوات الدنيوية » وهذا هو ما تتطلبه الديانات كلها ويتطلبه الإسلام كذلك .

لقد تكلمت فى هذا الموضوع أكثر مما كنت أريد والآن سأنتقل إلى الكلام على أسباب اضمحلال الدولتين الأموية والعباسية وهو يتناول تلك المشاكل الاجتماعية والدينية التى كانت تعترض سبيل الخلافة دائماً والتى قوضت ببطء وبدون توان أساس حكومة الأمويين العربية وحكم العباسيين ذى الصبغة الفارسية .

ولنعد إلى مقتل عثمان ونتبين أثره فى الخلافة ، فقد كان حادثاً من أخطر الحوادث إذ حطم مرة واحدة قدسية شخص الخليفة ومن هنا كان نقطة التحول من الحكومة الدينية إلى الملكية ، وقد فكت العناصر المتمردة التى

(١) لاشك أن هذا القول لاينطبق على الدين الاسلامى فهو صالح لكل زمان ومكان بفضل ما فيه من مبادىء قويمة ومعتقدات سليمة ويكفى أن نعلم أن أهم ركن من أركانه وهو التوحيد يتفق كل الاتفاق مع ما يدين به العالم اليوم من مبادىء الديمقراطية والحرية فهو لايقر بالألوهية والسمو إلا لله ومن هنا لا يوافق على استعباد الناس لأى سبب من الأسباب الاجتماعية أو الدينية ولا يقر الوساطة أو المحسوبية ويقرر حرية الفرد المطلقة — المترجم .

(٢) راجع مقدمة المترجم — المترجم .

ألزمتها الهدوء عبقرية الرسول وخليفتيه القديرين أبى بكر وعمر من عقالها مرة ثانية وأصبحت بلاد العرب حتى أيام الخليفة عبد الملك ميداناً للصراع الحزبى والنفوس المخاطرة ، وفى زمن الاضطراب الذى أعقب موت عثمان كانت الكلمة لقانون القوة وكان الأمويون بدون نزاع هم أقوى الأحزاب نفوذاً وأكثرهم عدداً ، وقد قضوا على مقاومة الشيعيين الذين كانوا قد هزموا هزيمة ساحقة بقرب عين الوردة (٦٥ هـ) قضاءً تاماً فى موقعة حروراء (٦٧ هـ) واستمرت معارضة الحجاز حتى الاستيلاء على مكة وموت عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ ، أما الحرب مع الخوارج فقد طالت حتى سنة ٧٧ هـ [١] .

ولو أن عبد الله بن الزبير سار إلى دمشق حيث كان له أنصار عديدون فى وقت الفوضى والاضطراب هناك لكان من المحتمل القضاء على الدولة الأموية عندئذ ولكن عبد الله ترك قيادة جميع الحملات حتى فى بلاد العرب والعراق لقواده وظل بدون حراك فى مكة [٢] ، وقد وجدت مقدرة عبد الملك الادارية ميداناً واسعاً لنشاطها فى الفوضى الضاربة وبفضل كفاءته قضى على جميع العقبات التى اعترضت الحكم الأموى ووضع نفسه على عرش دمشق حاكماً لا ينازعه أحد فى طول الدولة الإسلامية وعرضها .

أما الخوارج والشيعة فلم تعد لديهم القوة تحت ضربات القواد لمعارضة الحكومة الأموية علناً ولكن عداءهم للأسرة الحاكمة لم يعدم الوسائل للانتشار والملاءمة بينه وبين مقتضيات الظروف الجديدة التى نشأت فى الشرق

---

(١) Van Vloten, Recherches sur la domination Arabe, p . 36

(٢) weil, vol. I, p. 338.

إبان الحكم العربى ، وكما يقول فان فلوتن بحق « امتد نزاع الأحزاب السياسى إلى الدائرة الاجتماعية والدينية . » .

وقد أغضبت الحكومة الأموية منذ بدء أمرها الفريق الإسلامى الأكثر تديناً ، ونحن ندين لابن قتيبة لأنه ينقل لنا كتاباً يقال إن الحسين حفيد النبى أرسله إلى معاوية مؤسس الدولة الأموية ، وسواء أكان هذا الكتاب صحيحا أو موضوعاً — لأن هذا خارج عن الموضوع هنا — فإنه يفصح عن عواطف كان يشترك فيها بدون شك عامة المسلمين فى ذلك الوقت إلى حد بعيد ، والكتاب كما يلى : « أما بعد فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عنى أمور لم تكن تظننى بها رغبة بى عنها ، وأن الحسنات لا يهدى لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى ، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عنى فانما رقاه الملاقون المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الجمع وكذب الغاوون المارقون ما أردت حرباً ولا خلافاً وإنى لأخشى الله فى ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحلين حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم ، ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة جراءة على الله واستخفافاً بعهده ، أو لست بقاتل عمرو بن الحمق الذى أخلقت وأرباب (كذا وربما كانت واربات — المترجم) وجهه العبادة فقتلته ومن بعد ما أعطيته من العهود مالو فهمته العصم نزلت من سقف الجبال ، أو لست المدعى زياداً فى الإسلام فزعمت أنه ابن أبى سفيان وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر

(أنظر Goldz her, Vol, I, p. 188 Note 2. والفخرى ص١٢٥ وابن خلكان

ﺣ ٤ ص ٢٤٧) ؟ ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم فى جذوع النخل ، سبحان الله يا معاوية لـكأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك ، أو لست قاتل الحضرمى الذى كتب اليك فيه زياد أنه على دين على كرم الله وجهه ودين على هو دين ابن عمه صلى الله عليه وسلم الذى أجلسك مجلسك الذى أنت فيه ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف فوضعها الله عنكم بنا منة عليكم ، وقلت فيما قلت لا ترد هذه الأمة فى فتنة وإنى لا أعلم لها فتنة أعظم من أمارتك عليها ، وقلت فيما قلت أنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإنى والله ما أعرف أفضل من جهادك فإن أفعل فإنه قربة إلى ربى وإن لم أفعله فأستغفر الله لدينى وأساله التوفيق لما يحب ويرضى — وقلت فيما قلت متى تكدنى أكدك فيكدنى يامعاوية فيما بدا لك فلعمرى لقديما يكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ولا تمحق إلا عملك فكدنى ما بدالك واتق الله يامعاوية واعلم أن لله كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنة وأخذك بالتهمة وأمارتك صبيا يشرب الشراب ويلعب بالكلاب . ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك وأهلكت دينك وأوضعت (كذا وربما كانت أضعت المترجم) الرعية والسلام . »[1] ولم ينظر

---

(١) مخطوطة بمكتبة خدابخش الشرقية ببنكيتور ص ١٨٦ (لم أستطع الاطلاع على هذه المخطوطة ولـكنى نقلت الـكتاب من الأمامة والسياسة طبعة القاهرة ج ١ ص ١٣١ — ١٣٢ ، ولا يكاد يوجد اختلاف بين هذا النص وبين الترجمة الإنجليزية التى أوردها خدابخش فى مقدمته هذه — المترجم) وقد بين Gayangos مترجم كتاب الدول الإسلامية فى الأندلس للمقرى وذلك فى الجزء الأول ملحق E أن هذا الـكتاب ينسب خطأ إلى ابن قتيبة ، ويظهر أنه يرى أن كاتبه شخص آخر عاش قبل ابن قتيبة ، وهذا الـكتاب (الامامة والسياسة) سواء أ كان

المعاصرون إلى الحكم الأموى على أنه امتداد لحكم النبى وأصحابه بأى حال من الأحوال طالما أنه كان يعتمد لا على الاسلام الذى كان عماد الخليفتين الأولين وقوتهما بل على القوة القاهرة ، وهذه المسألة فى الحقيقة هى أعظم مصادر ضعف الأمويين كما أنها تفسر المعارضة الدائمة لحكمهم تلك المعارضة التى كانت ترتفع باسم الله ورسوله وكان لزاماً على الأمويين أن يقفوا فى وجهها ويقضوا عليها ، وفضلا عن ذلك فان معاداة العراق التى لا تفتر للأمويين كان لها أثر كبير فى تعريض حكمهم للخطر ، فقد كان العراق الذى اتخذته الأرستقراطية العربية موطنا لها طوال هذا العهد مركز تجمع لكل الاضطرابات والثورات التى قامت ضد الأمويين تقريبا ، على أن سياسة الأمويين التى كانت خالية خلوا تاما من العطف على رعاياهم هى التى عرضت كيان هذه الدولة للخطر أكثر من أى شىء آخر ، وقد كانت سببا فى قيام تلك الحركة الاجتماعية الهائلة التى لم توجه ضدهم فحسب بل ضد الحكم العربى بصفة عامة وهى حركة الشعوبية التى ابتدأ بها الموالى وشجعها وأيدها التقاة والمخاطرون ولو أن الحوافز التى دفعتهم كانت مختلفة كل الإختلاف عن حوافز الموالى ، فقد شاهد المسلمون الأتقياء الصالحون بفزع ودهشة سوء معاملة العرب وأفراد الطبقة الحاكمة لإخوانهم المسلمين من غير العرب أى الموالى لأن هذه المعاملة كانت لا تتفق مع شريعة الله ولا مبادىء رسول الله ، ورأى المخاطرون فى عدم رضاء إخوانهم وغضبهم فرصة للعمل لنيل مآربهم وتنفيذ أغراضهم ، ويتجلى الموقف بكل وضوح فى أحاديث يزيد بن المهلب

الذى كتبه هو ابن قتيبة أو غيره يحتوى على قدر كبير من المعلومات التى يندر وجودها فى غيره من المؤلفات وهو كتاب ربما كان طبعه مفيدا أنظر أيضا: Brockelmann, p. 122, Arab Litteratur

والحسن البصرى الواردة فى كتاب لمؤرخ من أقدم المؤرخين العرب ، إذ أنه عند ما استولى يزيد بن المهلب على البصرة من عدى واليها من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك قال لأهلها : « أيها الناس أنا غضبنا لكم فانظروا لأنفسكم رجلا يحكم فيكم بالعدل ويحكم فيكم بالسوية ويقيم فيكم بالكتاب والسنة ويسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين » ، وهذا الحديث الذى قاله يزيد الذى أدت به مطامعه الشخصية إلى القيام ضد الخليفة يبين لنا بجلاء كيف حاول القواد الطامعون استغلال روح التذمر المنتشرة بين الناس . وسنذكر مع هذا ما اضطر الحسن البصرى أن يقوله عن الأمويين والذى فيما نرى يردد صدى عواطف جميع المسلمين الأتقياء ، فقد قال رجل للحسن : « كأنك راض عن أهل الشام ، فقال : قبح الله أهل الشام وبرحهم أليسوا الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام وأباحوه أنباطهم وأقباطهم لا يتناهون عن سيئة ولا انتهاك حرمة ثم نصبوا المجانيق يرمون بيت الله . »[1]

هذه هى الروح التى كان المسلمون التقاة ينظرون بها إلى الحكم الأموى وهذه هى الروح التى ساعدت على نمو الفرق المختلفة : فرق الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرها من الفرق التى لا عد لها والتى قامت فى حضن الخلافة وهدت كيانها الهزيل [2]، وهذه هى الروح التى تفسر معارضة الحارث ابن سريج وثورة الخارجى عبد الله بن يحيى وثورة الموالى الخوارج تحت رئاسة أبى على السكوفى مولى بنى الحارث ، وقد قال الثوار : « لقد سمعنا قرآنا عجبا

---

(١) De Goeje, Frag. Hist Arab, vol. I, p. 59.

(٢) راجع تعليق ٥ من تعليقات خدابخش

يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، وأن الله بعث نبينا للناس كافة ولم يزوه عن أحد ، ويقول جولدزيهر إن هذه فى الحقيقة هى أقدم محاولة فى أوساط الأجانب ولو أنها محاولة فى أسلوب معتدل لرفض النظرية القائلة بأفضلية العرب ، وقد حدثت فى زمن مبكر هو زمن معاوية ، أضف إلى ذلك أن هذا يفسر لنا لماذا يعتبر أقدم مؤرخى الإسلام الخوارج ممثلين لحزب الشعوبية ، على أن هذا لم يكن سوى مقدمة الحركة الكبرى التى آن أوانها ، فان الموالى وقد اشتغلوا بالدراسات العلمية سرعان ما نبغوا فى العلم ولكنهم رغم ميزاتهم حرموا المساواة السياسية والإجتماعية بالعرب ، وقد كانت شدة كراهيتهم للحكومة التى وضعت إمتيازات إجتماعية بغيضة وقوانين ظالمة وفرضت ضرائب باهظة على المسلمين الجدد والموالى تتناسب مع مكانتهم العلمية وتفوقهم ، وهكذا كانت الهوة بين الحكومة الأموية والأجناس الخاضعة لها تزداد إتساعا من وقت لآخر ، وتوجد لدينا لحسن الحظ رواية عن محادثة بين الخليفة عبد الملك والفقيه الزهرى توضح لنا علم الموالى وورعهم وهى كما يأتى :

« قال ابن الصلاح فى رحلته روينا عن الزهرى أنه قال ؛ قدمت على عبدالملك ابن مروان فقال من أين قدمت يازهرى قلت من مكة قال فمن خلفت بها يسود أهلها قال : قلت عطاء بن أبى رباح قال : فمن العرب أم من الموالى قلت : من الموالى ، قال : فيم سادهم ، قلت : بالديانة والرواية ، فقال إن أهل الديانة والرواية ينبغى أن يسودوا الناس ، قال : فمن يسود أهل اليمن ، قلت : طاوس ابن كيسان ، قال فمن العرب أم من الموالى ، قلت : من الموالى ، قال فيم سادهم قلت : بما سادهم به عطاء ، قال من كان كذلك ينبغى أن يسود الناس ، قال : فمن يسود أهل مصر ، قلت : يزيد بن أبى حبيب ، قال : فمن العرب أم من

الموالى ، قلت من الموالى ، فقال كما قال فى الأولين ، ثم قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول الدمشقى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ، قلت : من الموالى عبد نوبى اعتقته امرأة من هذيل ، فقال كما قال ، ثم قال ، فمن يسود اهل الجزيرة ؟ قلت ميمون ابن مهران ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى ، فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قلت الضحاك ابن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت من الموالى ، فقال كما قال ثم قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبى الحسن ،قال من العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، قال : ويلك فمن يسود أهل الكوفة ؟ قلت ابراهيم النخعى ، قال من العرب أم من الموالى ؟ قلت : من العرب ، قال : ويلك يا زهرى فرجت عنى والله لتسودن الموالى على العرب حتى يخطب لها على المنابر وان العرب تحتها ، قال قلت : يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ومن ضيعه سقط . »[1].

ومهما بلغ الموالى من رفعة الشأن فان الحكومة الأموية لم تكن لتمنحهم حقوقا سياسية ، وواضح من هذه الرواية أن الموالى حتى فى عهد الخليفة عبد الملك كانوا يسيرون إلى الإمام فى بطء ، وقد كانت الحركة التى تزعمها المختار نتيجة التذمر الواسع الانتشار الذى عم المجتمع الإسلامى ذلك التذمر الناشىء عن حياة الخلفاء الأمويين الداعرة واحتقارهم البعيد عن الحكمة للإسلام ومبادئه وسياساتهم الإدارية والمالية الرجعية الظالمة التى كانت ترمى إلى جعل

---

(١) كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١٠٧ ؛ وتوجد فى العقد الفريد ج ٢ ص ٩٥ — ٩٦ رواية مشابهة] عن حديث بين الوالى عيسى بن موسى والعالم الدينى ابن أبى ليلى .Goldziher, vol, I. p. 115 وفيما يختص بعطاء بن رباح أنظر ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٥ وعن مكحول أنظر ابن خلكان ج ٣ ص ٤٣٧ ووازنه بما فى ص ٤٣٨

الرعية بما فيها المسلمون الذين اعتنقوا الإسلام أخيراً « قطاع خشب وسقائين »
فهذه كانت الأسباب الحقيقية لثورة المختار ولو أنها كانت ترمى فى الظاهر إلى
تأييد حقوق ابن الحنفية ، أضف إلى ذلك أن قسوة الحجاج وإجراءاته السياسية
العاتية التى آذت الموالى والمسلمين الجدد كثيراً أدت إلى فقدان الحكم السورى
للعطف أو القليل الباقى منه لا عند الموالى فحسب بل عند العرب أنفسهم ،
وقد كانت ثورة بن الأشعث إذا نظرنا إلى حقيقتها محاولة يائسة من محاولات
العراقيين للقضاء على النفوذ السورى ، وهذا الرأى الخاص بثورة بن الأشعث
يبدو بوضوح فى مراجعنا ، وأبو مخنف يذكر أنه كان يوجد فى معسكر دير
الجماجم مائة ألف مقاتل من العرب ومالا يقل عن هذا العدد من الموالى الذين
ذهبوا على ما يظهر مع سادتهم العرب ، فقد كان من عادة السادة العرب أن
يأخذوا معهم مواليهم إلى ميدان القتال وأن يدعوهم يحاربون مشاة فى حين
أنهم يقاتلون على ظهور جيادهم ، وهذا لا يختلف عما كان يفعله أمراء الأقطاع
وعبيدهم فى القرون الوسطى ، وقد بدأت الثورة بين الجند العراقى فى سجستان
ثم انضمت اليهم حاميات الولايات وفتحت لهم الكوفة والبصرة أبوابها ، وقد
اشترك فى ثورة ابن الأشعث أشهر الرؤساء العرب من أمثال ابن الأشعث
الكندى وجرير بن سعيد بن قيس الهمدانى (١) وعبد المؤمن بن شبث بن ربعى
التميمى (٢) وبسطام بن مصقله بن هبيرة البكرى وقرشيون مثل محمد بن سعد
بن أبى وقاص (الطبقات ص ١٠٩٩ الطبقة الثانية) وقرشيون مثل عبيد الله

---

(١) prof. Browne, pp. 229,233

(٢) أنظر Wellhausen, Das Arabische Reich und seinSturz, pp. 145, Anon., p .340, 153, et seq

ابن عبد الرحمن العبشمى وعبد الرحمن بن عباس الهاشمى وعلماء مثل القاضى الشعبي والكلبي صاحب أبي مخنف [١].

وقد كان الموالى فى ثورات كل من المختار وابن الأشعث يعدون بالآلاف ولكن يجب ألا يعزب عن بالنا أنه لم تكن واحدة من هاتين الثورتين حركة من حركات الموالى الخالصة كما ذهب إلى ذلك بعض الكتاب المشهورين ، وقد كان من الطبيعى أن يتعاون الموالى الذين تضغط عليهم وتدوسهم تحت أقدامها السياسة الأموية الأمبراطورية المعتدية مع الثوار الذين يسعون للقضاء على تلك الدولة ، وكانت للموالى مصلحة فى كل من هاتين الثورتين ولكنهم لعبوا دورا ثانويا فقط .

ولا يمكن أن تكون طبيعة هذه الثورات محل خطأ ، فقد كانت حروبا لا للموالى ضد العرب بل للعراقيين ضد السوريين ، كانت حروبا بين ولايتى الدولة العربية — العراق والشام — إذ كانت كل ولاية منهما تسعى دائما لكي يكون لها المركز الأول فى الدولة ويحفظ لنا ابن قتيبة فى كتابه الأمامة والسياسة [٢] وصية يقال إن الأحنف بن قيس وجهها إلى أبي موسى قبيل التحكيم في دومة الجندل وهى كما يأتى : « يا أبا موسى أعرف خطب هذا المسير وأعلم أن لك ما بعده وأنك إن ضيعت العراق فلا عراق لك فاتق الله فإنك تجمع بذلك دنيا وأخرى ، إذا لقيت عمرا غدا فلا تبادره بالسلام فليس

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٠٥٦ و ١٠٨٨ و ١٠٩٦ و ١٠٩٩ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٠٨ والمخطوطة ص ١٦٥ ، ومما يستحق الذكر أن الحجاج أبعد السوريين عن العراق خوفا من أن تؤثر فيهم روح العراقيين الخبيثة ، وقد كان العراق مركز الشيعة والمعارضة الدينية أيضا Wellhausen p.,311 ومن المحتمل أن الحجاج كان يتبع فى هذا الأمر نصيحة معاوية لأبنه يزيد الفخرى ص ١٣٦ وابن خلكان ج ١ ص ٢٣٨ (نقلت هـذا ص من الأمامة والسياسة طبعة القاهرة ج ١ ص ٩٩ — المترجم) .

من أهله ولا تعطيه يدك فإنها أمانة وإياك أن تقعد على صدر الفراش فإنها خدعة ولا تلقه وحدك وإياك أن يكلمك فى بيت فيه مخدع يخبأ لك فيه رجالا وإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلى نخيره أن يختار أهل العراق رجلا من قريش وأهل الشام من شاءوا فإنهم إن يولوا الخيار يختاروا من يريدون فإن أبى فلتختار أهل الشام من قريش وأهل العراق من شاءوا فإن فعلوا كان الأمر بيننا ».

وهذه الوصية تعتبر مفتاحاً للموقف كله فهى تبين السياسة التى عزم العراق أن يسير عليها إذا انتصر الأمويون ، وقد ازداد شعور العداء بين العراق والشام شدة فوق ذلك بوجود الجنود السوريين الذين أنزلهم الحجاج هناك إذ كانوا مظاهر لسلطان أجنبى ولم تكن الأرستقراطية العربية تستطيع أن تتحمل لحظة أن ترى الحجاج وهو من الرعاع يستخف بها ويهينها.

ويصف الأعشى الهمدانى مشاعر الارستقراطية العربية نحو الحجاج فى قصيدته التى يمدح فيها ابن الأشعث فيقول [١] :

يأبى الأله وعزة ابن محمد [٢] وجدود ملك قبل آل ثمود
أن تأنسوا بمذممين عروقهم فى الناس إن نسبوا عروق عبيد [٣]
كم من أب لك كان يعقد تاجه بجبين أبلج مقول صنديد
وإذا سألت المجد أين محله فالمجد بين محمد وسعيد [٤]

---

(١) الأغانى ج ٥ ص ١٥٣ (ج ٥ ص ١٤٥ بطبعة مصر — المترجم)
(٢) يقصد ابن الأشعث
(٣) يقصد أبناء ثقيف من أمثال الحجاج
(٤) محمد هو ابن الأشعث وسعيد هو ابن قيس

بين الأشج وبين قيس بازخ بخ بخ لوالده وللمولود [١]

وهكذا أضاع الحكم الأموى معونة الرؤساء العرب وفقد إخلاص الموالى الذين كانوا دائماً ينحازون ضد الحكومة كلما سنحت لهم الفرصة ، والحقيقة أنه كانت توجد لديهم أسباب متعددة تدعوهم إلى ذلك ، فالموالى حقيقة كانوا يعتبرون فى نظر العرب جنساً منحطا لا يمتاز عن العبيد إلا قليلا ويقول الطبرى المؤرخ فى صدد الكلام على ثورة المختار (التى كان أعوانها يتألفون إلى حد كبير من الموالى أو المسلمين من غير العرب) « إنه لا شىء ضايق أهل الكوفة [العرب] أكثر من أن يروا المختار يعين للموالى حقهم فى الفيء ، وقد ضجوا قائلين : عمدت إلى موالينا وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعا فاعتقنا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاء فى فيئنا . » [٢] ، وإن العبارة الآتية المنقولة عن جولد زيهر لتكفى لبيان الاحتقار الذى كان يضمره العرب لهم « يقال إن دم المولى نفسه – اعتماداً على ماورد فى كلام لأحد بنى شيبان — يختلف كل الاختلاف عن دم العربى حتى انه لو حلل دم الإثنين بعد الوفاة لوجد فرق بينهما . » [٣] ، وإن الكلمة الطيبة التى قالها فى حق الموالى أنصار العربية وكانوا هم الشعراء فى ذلك الوقت لتعتبر نادرة أو عن طريق الاستثناء فقط ، ولعمرى إن الشعر العربى وبخاصة شعر العهد الأموى

---

(١) يقصد بالأشج هنا أحد أجداد الأشعث (وازن بما ورد فى Anon, Ahlwardt p. 355 من أن قيسا هو والد سعيد الهمدانى المشهور الذى تعاون حفيده جرير مع حفيد الأشعث)

(٢) Browne, p. 234 (الطبرى ج ٢ ق ٢ ص ٦٥٠ طبعة دى غويه — المترجم)

(٣) Goldziher vol. I, pp. 118—119 .

ليفيض بالازدراء والاحتقار لمن لم يكن الدم العربى يجرى فى عروقهم ، ولم يعرف الشاعر الأخطل طريقا أجدى لهجاء العرب الذين يريد أن يجعلهم محل ازدراء الناس من أن يطلق عليهم أهل أزقباد (وهو موضع فى منطقة ميسان) أن ينكر عليهم الصفة العربية ، فإن نسبة الشخص إلى ميسان كان معناها عندهم أنه ليس له شرف عظيم . ومما يستحق الذكر — فى الحقيقة فى زمن أكثر تأخراً من هذا — أن المولى أبا العتاهية يهجو منافسا عربيا له هو الشاعر والبه أستاذ أبى نواس بقوله أنه كان خيرا له أن يعتبر نفسه من الموالى ما دام لا يستحق أن ينسب إلى العرب ومعنى هذا أن الولاء لقبيلة عربية كان يعتبر شرفا إذا وضع فى الميزان مع الأصل الفارسى .

وقد كان إسحاق الموصلى (فى زمن هارون الرشيد) الذى يقول عن نفسه إنه من بنى الأحرار هدفا لقذف ابن جامع العربى طوال المدة التى كان لا ينتسب فيها إلى قبيلة عربية حتى أنه كان من الممكن سبه ، وقد استطاع بانتسابه إلى قبيلة خزيمة فقط أن يحمى نفسه من مثل هذه الشتائم واستطاع أن يقول : [١]

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى ودافع ضيمى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعداً غير قائم

وكانت عمليات الزواج بين العرب والموالى تعتبر غير متكافئة ، ولم تحرم دائرة البحث من تناول موضوع هل يستطيع الصالحون من غير العرب أن يتزوجوا فى الجنة نساءا من العرب . ويتضح أن مثل عمليات الزواج هذه

---

(٣) الأغانى ج ٥ ص ٥٦ (ج ٥ ص ٥٣ طبعة مصر — المترجم) apud Goldziher,
p. 119 ويقابل ذلك الهداية ج ١ ص ١١٢ و Goldziher, p. 132

— وعلى الأقل فى هذه الدنيا — كانت تعتبر غير صحيحة أو غير طبيعية من جميع الوجوه من المجهود الأدبى للهيثم بن عدى الذى كتب مؤلفاً خاصاً يتناول الكلام على هؤلاء الموالى الذين تزوجوا من أسرات عربية ، وقد ظل موضوع ما إذا كانت حالات الزواج هذه حلالا أم حراماً دون أن يبت فيه برأى زمنا طويلا ، بل إن رجل الدين نفسه وجد ما يحول بينه وبين الاشتغال به مما يدل دلالة واضحة على صعوبة القضاء على ادعاءات الأرستقراطية العربية رغم مخالفتها للقرآن والسنة (١) ، ولم يكن تعصب العرب ضد الموالى ليسمح حتى بالعبادة معهم فى مسجد واحد ، ويظهر أن الموالى فى الكوفة (ومصدرنا يشير إلى القرن الثانى للهجرة) اضطروا إلى تأدية صلواتهم فى مسجد خاص بهم (٢) ، ويظهر أنهم فى الولايات التى كان يوجد بها عدد كبير منهم (مثل خراسان) كونوا وحدة قائمة بذاتها ، والتواريخ العربية مليئة بالقصص التى تحقر من شأن الموالى الذين يتهمون دائماً بالتزوير والكذب .

وعلى ذلك فإن الحكومة الأموية التى لم تعد تستمد العون من الإسلام ومبادئه وفقدت إخلاص رعاياها وتعاونهم معها بإجراءاتها الظالمة الضيقة الأفق أصبحت تلقى عبئها على جندها الذين لم يكن فى مقدورهم أن يحموا الدولة من الخطر ، إذ أن القوة العسكرية بدون وجود الولاء من جانب الرعايا ليست ولم تكن أبداً أقوى عضد لأية حكومة . وقد انتشرت بذور التمرد فى كل مكان وكانت الأرض صالحة لأخراج الثمرة عندما ظهرت فيها

---

(١) Goldziher, vol. I, p. 130 والمصادر التى يشير إليها (راجع تعليق ٦ من تعليقات خدابخش — المترجم)

(٢) الطبرى ج٣ ص ٢٩٥ و Goldziher, p. 120, ويوازن بما جاء فى De Goeje, Frag. Hist. Arab., vol. I, p. 69

رسالة أو دعوة العباسيين التي عملت في سكون وهدوء على الاستفادة من عناصر الكراهية الكثيرة التي كانت موجودة وقوضت سلطان الأمويين وأزالت كيان دولتهم المتداعي في مدى ثلاثين سنة [١]. وعلى ذلك فليس هناك ما يدعو إلى العجب في نجاح أبي مسلم السريع المدهش. وإن الدور الذي قام به الفرس في الدعوة العباسية ليبدو واضحاً وضوحاً كافياً إذا عرفنا أن اللغة الفارسية كانت هي اللغة السائدة في جيش أبي مسلم [٢]، وقد كانت الكوفة هي مركز المؤامرة العباسية كما كانت مركز السبئية وهي الفرقة الغالية من الشيعة، وكان الموالي الفرس هم الذين وضعوا نواة كل من هاتين الحركتين وتعهدوهما ووجهوهما ضد السيطرة العربية في الإسلام، وتتفق هاتان الحركتان في النقط الأساسية كل الاتفاق: في التعليم وفي أسلوب الدعوة وفي مظهر النشاط، ويمكن إضافة نقطتين أخريين أيضاً فقد كانت العصي الخشبية وهي السلاح الوطني للطبقات الدنيا من الفرس تسمى كافر كوبات (العصي التي يضرب بها الكفار) ويقول ڤلهاوزن « إن أصلها يرجع إلى خشبية المختار لا إلى خشبية أبي مسلم — أنظر الطبري ج ٢ ص ٦٩٤ » وفضلا عن ذلك فان موالي خترنية في الكوفة وهي قاعدة الأقليم كانوا يؤلفون أقدم أعوان المختار ومن خترنية كان مجيء أبي مسلم على التحقيق [٣] وحتى لو أننا شككنا في صحة هذه الأقوال لما فقدت أهميتها لأن تلفيقها لا بد أن يكون قد حدث نتيجة لدافع ما وهذا الدافع فيه الكفاية في نظرنا. ولا

(١) Browne, pp. 236 et seq. لقد تحاشيت الدخول في هذا الموضوع متعمدا لأن القارىء سيجد في كتاب الأستاذ Browne المسمى Lit. Hist. of Persia أوفى وأوضح بحث للموضوع.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٦٥

(٣) المسعودي ج ٦ ص ٥٩ والطبري ج ٢ ص ١٩٦٠ والفخري ص ١٦٣
Wellhausen, p. 314,

عجب إذا كان العباسيون بعد أن انتصروا قد تخلوا عن الشيعة فقد كانوا ينظرون إليهم نظرة الريبة وكان هؤلاء يستطيعون أن يذهبوا إلى حيث يريدون بعد أن أدوا مهمتهم .

وعلى ذلك فهناك تشابه عظيم بين ثورة المختار الفاشلة وبين الثورة الناجحة التى أشعلها أبو مسلم ، ومع أنه فى سنة ٦٧ هـ بدا أن النار أخمدت بوابل من الدماء فإن الشرر توارى تحت الرماد الذى حملته الريح من الكوفة إلى خراسان ، وقد كانت خراسان أكثر صلاحية من الكوفة وكانت احتمالات النجاح بها أكبر إذ أن الموالى هناك كانوا أكثر تضامناً والعرب كانوا بالنسبة لهم أضعف كثيراً منهم فى الكوفة ، وقد بدأت الثورة من خراسان وامتدت إلى جميع الولايات كما لو كانت ناراً طائشة ، ويمكن دراسة مراحلها الأولى وتطوراتها التالية فى كتاب تاريخ فارسى الأدبى للأستاذ براون.

وباعتلاء العباسيين عرش الخلافة ازداد نفوذ الموالى المضطهدين المحتقرين بسرعة وقد وصف فون كريمر المؤثرات الفارسية وصفاً رائعاً ولذلك فلست فى حاجة إلى الحديث عنها هنا . ولكل عمل أثره فما كان يحدث استثناءا أصبح فى عهد العباسيين شائعا وعاماً ، حقاً إن الأمويين احترموا رجاء ابن حيوة مولى كندة احتراماً كبيراً وأكرموه [1] . ولكن شعور العرب العام نحوهم يبدو فى الشعر العربى المعاصر وفى حادثة تذكر عن عمر بن عبد العزيز ، فقد ولى أحد الموالى على وادى القرى ولما عوتب على هذا الفعل قال : « إنه يقرأ كتاب الله ويعرف سنة رسوله ، ألم يقل الرسول إن الله

(١) De Goeje, vol : I, p. 90 (راجع تعليق ١٣ من تعليقات المترجم — المترجم)

بهذا القرآن يرفع شخصا ويخفض آخر ، ويمكن أن نذكر قصة أخرى عن عمر التقى فقد أتى لزيارته زياد بن أبى زياد مولى ربيعة فتخلى له عن صدر المجلس وقال : « إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه فضلا فلا تأخذ عليه شرف المجلس . » [١] ، على أن سلوك عمر ليس هو المستوى العام للخلق الأموى فقد كان بتقواه وخوفه من الله يقف بين الخلفاء الأمويين موقفاً فريداً .

وقول السيوطي [٢] إن المنصور أول من استخدم الموالى فى الوظائف الهامة وقدمهم على العرب يدل بمافيه الكفاية على مركزهم الاجتماعى والسياسى حتى زمن ذلك الخليفة العباسى فإن المسلمين من غير العرب والموالى الذين كانوا قد تجاسروا فى العهد الأموى على المطالبة بالمساواة بالعرب الخلص بشكل معتدل على سبيل التجربة فقط ظهروا الآن على المسرح حزبا له أغراض معينة هو حزب « الشعوبية » أو « أنصار العناصر الأجنبية » ، وقد بدأوا بالمناداة بأن جميع المسلمين متساوون ثم تعدوا ذلك إلى المناداة بأن العرب أحط من كثير من الأجناس الأخرى ، ويقول جولدزيهر إننا فى عهد المنصور نفسه نرى كيف ينتظر العربى أمام باب الخليفة دون جدوى فى حين يدخل الخراسانيون ويخرجون بحرية ويسخرون من العربى الخشن الطباع ، وقد أنب الوزير أبا تمام الشاعر (٨٤٥م — ٤٦ ه) لأنه شبه الخليفة بحاتم الطائى وغيره من الشخصيات التى كان العرب يفخرون بها وقال له كيف توازن بين أمير المؤمنين وبين هؤلاء العرب الأجلاف .

ويقول الأستاذ بروان عن هؤلاء الشعوبية إن كل واحد منهم كان يزهو

---

(١) De Goeje, vol. I, h. 62

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢

على وجه الخصوص بمفاخر شعبه سواء أكان سوريا أم نبطيا أم مصريا أم روميا أم أسبانيا أم فارسيا ولكن الفرس كانوا أشدهم حماسا وأكثرهم عددا [1] وقد نسج حول هذا الموضوع محصول أدبي وافر يمكن العثور على وصف له فى ص ٢٦٨ من كتاب تاريخ الأدب الفارسى القيم للأستاذ براون .

ويبدو أنه فى الزمن الذى كان يعيش فيه بن قتيبة والجاحظ (فى القرن الثالث للهجرة) كان الصراع الأدبي بين أنصار السيادة العربية وأعدائهم يمتد إلى مدى أوسع مما يمكن أن نستنتجه من بقايا هذا الأدب ، ونحن نجد صدى لهذه الحركة كما كانت فى كتاب البيرونى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى وكتب باللغة العربية وتزعم حركة العنصر الفارسى ضد إدعاءات أصدقاء العرب الفارغة وبخاصة ابن قتيبة . ولم يقعد عن استغلال هذه الحركة الفكرية حتى رجال الطوائف الدينية أنفسهم ، ونحن نجد فى آخر القرن الثالث الهجرى دعوة القرامطة فى جنوب فارس تمزج تعاليمهم الدينية والسياسية بالنظرية التى تقول « إن الله لا يرضى عن العرب لأنهم قتلوا الحسين ويفضل رعايا الأكاسرة وأبناءهم لأنهم هم وحدهم الذين يدافعون عن حق الأئمة فى الخلافة . » تلك النظرية التى كانت تلقن للمبتدئين من بين أتباع الاسماعيلية الذين كان القرامطة هؤلاء يكونون فرعا منهم ، وطبقا لما ذكره أخو محسن كانت هذه النظرية تلقن للمبتدىء عندما يصل إلى المرحلة التاسعة من مراحل تعرف أسرار الطائفة .

---

(١) Brockelmann, p. 140., و Goldziher, vol. I, pp-147-208, p. 226 وقد ترجمت فى ملحق رقم ٣ الفصل من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الذى يمدنا بجميع الحجج تقريبا التى احتج بها حزب الشعوبية فى التدليل على ادعائه بتفوقهم على العرب ولست فى حاجة الى أن أعيد ذكرها هنا (راجع ملحق رقم ٣ فى آخر الكتاب فقد نقلته عن العقد الفريد ـ المترجم)

وقد تلقى هذا الحزب المعونة والتشجيع من الخلفاء العباسيين أنفسهم الذين أقدموا راضين أيضا على العادات والتقاليد الفارسية وتيار الأفكار والمبادىء الفارسية ، وقد عين المأمون مديرين ثلاثة لبيت الحكمة الذى أنشأه وكان أحد هؤلاء الثلاثة عدواً لدوداً للعرب (١).

وقد أظهر المعتصم الذى كان يعطف على الأجانب عداءا ظاهرا للعرب فأمر بحذف جميع العرب من ديوان الجند فى مصر وأمر بإيقاف صرف الأعطيات لهم (٢). وفى عهد المتوكل صرفت لجميع الجند النظاميين معاطف سمراء فاتحة وطلب إليهم أن يحملوا سيوفهم معلقة حول الوسط طبقا للتقليد الفارسى وكان العرب على العكس من ذلك يحملون سيوفهم معلقة من الكتف (٣) وإن هذا ليخالف مخالفة واضحة تصرف يزيد بن المهلب الذى أمر بعقاب أحد العرب لأنه تجاسر على الظهور برداء فارسى خفيف ، وسنذكر مثلا آخر فقط وهو أنه عندما أراد الحزب التركى أن يرغم الخليفة المهتدى على التنحى عن الخلافة وقف أهل بغداد والجند والعرب بجانبه ، وقد رغبوا أن يعاد النظام الحربى القديم على ما كان عليه فى عهد المستعين فتدفع رواتب الجند كل شهرين وترد الأقطاعات والأراضى التى أعطيت للضباط الأتراك بدون وجه حق إلى بيت المال وأخيراً طلبوا أن يعهد الخليفة بالقيادة العليا إلى أحد أقاربه (أى إلى أحد العرب) ويحرم منها أتباعه وجنده الأتراك (٤) .

وهذه الحقائق نقد بليغ لسياسة الخلافة العباسية ، ولا عجب إذن إذا

---

(١) الفهرست ص ١٢٠ و Z. D. M. G, p. 658, year, 1859

(٢) ابن تغرى بردى ج ١ ص ٦٤٢

(٣) Von Kremer, vol I, p. 237

(٤) ابن خلدون : تاريخه العام ج ٣ ص ٢٢٩ و Apud Von Kremer, vol, I, p. 238

اشتبك الشعوبية فى حرب علنية مع السيادة العربية وجعل الجند الأتراك الخلافة ظلا فقط لما كانت عليه فيما مضى وانتزع الولاة البعيدون ولاية بعد أخرى من ولايات الدولة الإسلامية ولم يعودوا يدينون لأمير المؤمنين إلا بإخلاص خيالى وانفك رباط الوحدة والاتحاد الذى كان قوياً جداً ومتيناً فى عهود الخلافة الأولى وانحل أخيرا واكتسح المغول دولة خلافة بغداد الهزيلة وحطموها وأزالوها من الوجود نهائياً ، والسبب الأساسى فى سقوط الأمويين والعباسيين كان واحداً إذا أردنا الدقة فى أقوالنا ويمكن البحث عنه فى ظلم وفساد الحكام والترف والخلاعة اللتين لا حد لها [١] والتقصير التام فى تأدية الواجبات التى تدين بها كل حكومة لرعاياها والإهمال الكامل لكل ما هو حق وعدل [٢] .

وبينما فقد الأمويون سلطانهم باتباعهم سياسة قائمة على الانفراد بالحكم والعظمة الأرستقراطية وروح التسلط الباغية فقد العباسيون سلطانهم بسبب تساهل شديد إذ رضخوا أولا للمؤثرات الأجنبية ثم بعد ذلك للعسكرية الأجنبية . وقد كان اضمحلال الأمويين والعباسيين مثلا لأول مبدأ من مبادىء علم السياسة وهو أنه لا توجد حكومة تستطيع أن تبقى بدون إخلاص رعاياها وحبهم ومعونتهم الصادقة لها مهما كانت تسندها القوة العسكرية .

وقد بقى على أن أعترف بالمساعدة التى لقيتها فى أثناء قيامى بهذا العمل ، وإنى هنا لأقدم تشكراتى القلبية لسير تشارلس ليل Charles Lyall والأستاذ

---

(١) راجع تعليق ٧ من تعليقات خدابخش ـ المترجم

(٢) راجع تعليق ٨ من تعليقات خدابخش ـ المترجم

مرجليوث ومستر جستس Justice أمير على ومستر ه . ف سمن Samman فلولا مساعدتهم الصادقة لكان من المحتمل ألا يرى هذا المجلد الضوء أبداً ، ومع ذلك فان الكاتب لو تغاضى عن ذكر تشكراته بصفة خاصة للدكتور دنيسون رس الذى لقى منه عطفاً كبيراً وتشجيعاً ونصيحة لا تقدر لها قيمة ومعونة خالصة ومساعدة لا تشوبها شائبة فى جميع أعماله الأدبية والتاريخية لكان ناكراً للجميل ، والمؤلف مدين المستر . ف أزو R. F. Azoo أستاذ اللغة العربية فى مجلس الممتحنين بكتابة الكلمات العربية .

الحضارة الاســـلامية

الفرد كريمر

المقالة الأولى

لقد فكرت فى أن أضع فى نهاية كتاب Geschichte der hereschenden Ideen des Islams" مجموعة مختارة من النصوص الهامة المتعلقة بتاريخ الإسـلام وحضارته ، وكنت عاقداً العزم على أن أجمع بصفة خاصة النصوص التى تعالج أثر الثقافة الأجنبية فى دين العرب وآدابهم ، ولـكن فى أثناء مرحلة الاختيار تطورت الملاحظات التى أمدتنى بها مراجع عديدة إلى صـورة أعجبتنى فعزمت على إكمالها وإبرازها فى كـتاب مستقل ولو أنه لا يقصد به إلا نفع عـدد محدود من الزملاء المستشرقين إلا أنه سيكون أكثر نفعا من مجموعة جافة من النصوص الشرقية على كل حال .

ومؤلفى هذا يتصل اتصالا وثيقا بمؤلفاتى السابقة لأنه امتـداد وتكملة لها فى كثير من النقط ، وقلما يضيرنى أن أعترف صراحة وأتراجع إذا ثبت لى أثناء دراستى أن الآراء التى كونتها غـير صحيحة ولـكنى نادراً ما أضطر إلى سلوك هـذا الطريق وعلى العـكس لا يزال الـكثير من تلك الآراء يزداد صحة ويقينا .

ومع ذلك فإن ما بقى فى حاجة إلى الدراسة بعناية ليس بالشىء القليل ، ويجب علينا لـكى نفهم الإسـلام والنظام السياسى الذى استمد منه وكان عماد

المجتمع الإسلامى أكثر من ألف سنة أن نطبق طرق التحليل والموازنة كما هو الحال فى جميع فروع العلوم الأخرى .

وقد قام بناء الإسلام على أنقاض الحضارات السابقة وتضمن عناصر قديمة غير فيها تغييراً جزئيا وأضاف أشياء جديدة من صنعه هو ، وإن الفصل بين تلك العناصر الجوهرية المختلفة وترتيبها وتتبع وتقدير علاقاتها الداخلية وارتباطاتها بعضها ببعض هو عمل العلم الحر النزيه الذى لا شعار له سوى كلمة الصدق .

على أنه فى دراسة الديانات والحضارات الشرقية يتضح أن تمييز العناصر المتباينة أحيانا تباينا تاما والتى توجد بجانب بعضها البعض ويحجب بعضها البعض الآخر وأحيانا يغير بعضها البعض الآخر تغييراً تاما والخروج بفكرة واضحة عن أصلها أكثر صعوبة مما يبدو لأول وهلة .

وقد كانت آسيا الغربية دائما وافرة الإنتاج فيما يتعلق بالتجديدات الدينية فهناك قامت الديانات الأربعة الكبرى ومن تلك الأرض نفسها خرجت طوائف دينية لا عداد لها ونظم فلسفية ونظريات دينية ، ومن هناك بدأت موجات الديانات الأربعة الكبرى واتخذت مجراها العالمى التاريخى وهى موجات اليهودية والبرسية والمسيحية والاسلام التى هزت الأفكار والمشاعر الإنسانية إلى الأعماق .

والحقيقة الهامة التى تشير إلى سير الأمور فى الظاهر بترتيب بديع وانتظام هى أن تلك الديانات كانت تقوم الواحدة بعد الأخرى فى فترات معينة (موسى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد وزردشت حوالى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ومحمد حوالى سنة ٦٠٠ بعد الميلاد) ، ولكن كما يتكون فى البحر المفتوح فى الفترة

بين موجتين اضطراب دائم التغير من الدوامات الصغيرة كذلك تكون الفترة بين ظهور ديانتين مليئة حقا بحركات دينية جديدة لا عداد لها منها ما هو كبير النفع يفيض بالحيوية والقوة ومنها ما هو ضار يحمل فى ذاته بذور الانحلال والزوال

وقد اندثرت بعض تلك الفروع الصغيرة بمرور الزمن وبقى البعض الآخر ووصلت بذوره إلى الأجيال التالية .

وعلى ذلك فنى استطاعتنا أن نشير إلى طبقتين أو عدة طبقات تقوم الواحدة فوق الأخرى فى كثير من مناطق الحضارة الشرقية أو ترتبط بعضها ببعض ارتباطا قويا وتتحد حتى تبدو كأنها وحدة متماسكة بعض التماسك .

وييسر أمر تكوين هذه الوحدات المتماسكة جميعها أن جميع الديانات الأسيوية الكبرى يبدو فيها نوع من عدم تغير الشكل ونوع من التشابه العائلى الذى دام زمنا طويلا والذى أوحى بحق إلى أحد الجغرافيين العرب برأى مؤداه أن منشئى الديانات استطاعوا على ما يظهر أن يتابعوا أعمالهم فى المنطقة المعتدلة فى غربى آسيا فقط .

ونحن فى الغالب نميل إلى قبول الرأى القائل بإمكان وجود أثر لطبيعة بلاد العرب الشمالية وفلسطين والجزيرة والهضبة الفارسية المتماثلة فى الصفات الأساسية فى القوة الفكرية وفى الشعور الدينى بوجه خاص عند سكانها . وليس التشابه بين تلك الأقاليم قاصرا على الناحية الطبيعية فحسب بل يمكن ملاحظته أيضا فى تراثها الفكرى فكثير من الأمور الواردة فى كتب البرسيين المقدسة تذكرنا بالانجيل ، والملاحظات الموجودة فى الكتب المسيحية توجد أيضا فى القرآن دون أن يعتريها تغيير ما . وإن أول شعور يعترى الإنسان عندما يدخل الصحراء لأول مرة كأن يأتى إلى الصحراء العربية من مصر أو

من سهل سورية والجزيرة أو من سورية عبر پلميرا هو ذلك الشعور الغريب بوحدة اللون ،فالأرض وعالم الخضروات والحيوانات بل والأشخاص تكتسب جميعها من ذرات الرمل المتنقل الجميل لونا ترابيا أصفر يبهر البصر فى ضوء الشمس المحرقة ، وجانب الغزال الفاقع المارق فى موجات الرمال ينسجم انسجاما تاما مع لون الأرض حتى ليصعب أحيانا تمييز أحدهما عن الآخر ، وهكذا يكون حال الجمل وأخيه ذى الريش النعام أيضا ، أما نباتات الحسك القليلة والأشجار الكبيرة فانها تبدو ذابلة يعلوها الغبار ، وأما جلد البدوى الأصيل ولباسه فينسجم انسجاما تاما مع ما يحيط به إلى حد أنه لا يمكن أن يميزه عن الأرض النظر غير المدرب أو غير المتعود حتى ولو كان ذلك من مسافة قريبة على أنه كما تتشابه صفات سكان تلك البلاد البدنية وأخلاقهم تشابها عظيما كذلك يمتد التشابه إلى ما وراء الأشياء المادية ويمكن أن يلاحظ فى النواحى الأدبية والفكرية . ولكن يجب ألا يفسر هذا التشابه بأنه نتيجة لاتحاد الأصل أو تشابه الصفات البدنية بل يحسن أن يعزى إلى ألف سنة من اتصال الآراء وتبادلها بين الأمم السامية والآرية فى آسيا الغربية .

وهذا الأمر يجعل فحص النظم الدينية المختلفة وفصل العناصر التى تماثل كلا منها عن العناصر التى ليست سوى إضافات أجنبية من أصعب الأمور . ولسنا فى حاجة لأن نوضح أن النظريات القديمة (مثل النظرية التى قد تبرهن على وحدة الأديان حتى فى أيامنا وتشير إلى أن الڤيدا Vedas هو أقدم الكتب الدينية) قليلة الفائدة للعلم مثلها فى ذلك مثل نظرية تمجيد الآريين التقليدية أو النظرية التى لا يعول عليها أيضا الخاصة بأصل التوحيد عند الساميين[1] .

---

(١) أنظر المحاضرة الأولى لروبرتسون سميث فى كتابه دين الساميين ص ٤٨ وما يليها خدابخش (أنظر تعليق ١٥ من تعليقات المترجم — المترجم)

وقبل أن نستطيع الوصول إلى مثل هذه التعميمات يجب أن نقوم بأبحاث طويلة شاقة فى نقط خاصة ، ويجب أن نشق الطريق خطوة خطوة بالأبحاث العلمية حتى نصل أخيراً آمنين إلى بر السلامة ، ويجب قبل كل شيء أن نستعمل الطريقة المقارنة . ويلاحظ أن الاسلام دين النبي المكى يثير أقل الصعوبات نسبياً لأنه أحدث الأديان ولأن أصدق الوثائق التى تتعلق بأصله موجودة حتى أننا نستطيع أن نتتبع تاريخ ظهوره ونموه خطوة خطوة .

وقد أخذ **الاسلام** الشيء الكثير عن اليهودية والمسيحية ودين زردشت(١) ، ومن المحتمل أن يكون قد أخذ عن المانوية(٢) ، وقد أخذ عن البرسية بطريق مباشر وغير مباشر إذ أن عددا من الأفكار البرسية الواضحة تسربت إلى الإسلام عن طريق الكتب اليهودية وبخاصة التلمود(٣) ، فنظرية البعث ومعظم الأساطير المتعلقة بالجنة والنار ونظام الجن بأكمله دخل القرآن عن طريق اليهودية وهكذا الحال فيما يختص بوصف الحساب وتعذيب الميت فى القبر بوساطة الملكين منكر ونكير ، ومن المؤكد أن فكرة الصراط الدقيق كالشعرة الذى يوصل إلى الجنة عبر وهدة النار مستمدة من ديانة البرسيين وكان وصولها إلى القرآن عن طريق المدراش(٤) . على أن الاسلام لم يتردد فى الأخذ عن البرسية مباشرة وهناك حقيقة هامة وهى أن كلمة دين التى ترد مراراً

---

(١) أنظر تعليق ١٦ من تعليقات المترجم — المترجم

(٢) أنظر تعليق ١٧ من تعليقات المترجم — المترجم

(٣) التلمود هو كتاب اليهود الذى يتضمن قوانينهم وتقاليدهم وتعليقات عليها بأقلام رجال العلم عندهم — المترجم .

(٤) يجب تلقى هذه العبارات بحيطة وحذر والحالة الآن على ما هى عليه من المعرفة — خدابخش [المدراش هو أقدم تفاسير التوراه عند اليهود — المترجم] .

وتكرارا فى القرآن أخذت من الكتب البرسية ، وهى تظهر فى الهزوارش Huzvaresh بالصيغة ذاتها تماماً ، وهى فى اللغه البكترية القديمة دين Daena [١].

ومن الواضح جداً فيما يتعلق بالطقوس أن كل المناسك الخاصة بالحج وتأدية الفريضة فى البيت الحرام بمكة بقيت فى الاسلام كما كانت فى أيام الوثنية العربيه بتغيير قليل أو بغير تغيير [٢] ، والطقوس الدينيه الآن فى جامع مكة على ما كانت عليه منذ ألف وخمسمائة سنة مضت وأهل مكة يعتبرون أنفسهم خداما للبيت الحرام طبقاً للاعتقاد الوثنى ، وقد قال لى منذ وقت قصير أحد أهالى مكة وكان مسافراً معى من بيروت إلى مصر على باخرة واحدة « نحن أولاد الشمس وخدامين الحرم » . ويرجع أصل الحج إلى بيت مكة كما هو معروف جيداً إلى أقدم العهود ، إذ كان يحتم على الناس الذين يزورون مكة طبقاً للعادة الوثنية أن يبدوا عراة ولم يكن يستثنى من هذا حتى النساء وكان على الحجاج حقا أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة عراة ، وكانت لقريش وحدها ميزة ارتداء الملابس وإعارتها للحجاج الأجانب وقد نشـأت من هذا تجارة رابحة جدا [٣] .

(١) يلاحظ Haneburg بحق فى بحثه الدقيق عن Kriegsrecht der Moslimen أنه حتى الآن لم تقدر قيمة تأثير البرسيه فى الإسلام كما يجب [أنظر تعليق رقم ٢٠ من تعليقات المترجم — المترجم] .

(٢) يجب أن نشير هنا بصفة خاصة إلى حيوانات الضحية المزينة بالأزهار التى كان يحضرها معهم عادة الحجاج ليذبحوها فى نهاية الحج . ومما يثبت أن الحجر الأسـود فى الكعبة ليس إلا وثن قريش القبلى القديم قول عمر عند ما قبله « أنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » — البخارى (عن الحج) .

(راجع تعليق ٩ من تعليقات خدابخش — المترجم) .

(٣) ورد فى مجموعة أحاديث البخارى الحديث الآتى : « حدثنا فروة بن أبى المغراء عن على بن مسهر عن هشام ابن عروة عن عروة أنه قال : كان الناس يطوفون فى الجاهليـة عراة إلا =

والتغيير الوحيد الذى أدخله محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه سمح للحجاج أن يرتدوا نوعا من لباس الحج يتألف من قطعتين من القماش تغطى إحداهما أعلى الفخذ وتغطى الأخرى الصدر والأكتاف على أن تبقى الرأس عارية على ما كان عليه الحال فى الأيام السابقة حين كانوا يجعلون من شعرهم نوعا من الضفيرة بمادة غروية ، ولا تزال حتى الآن عادة الحج هذه ، وقد كان من عادتهم فى الجاهلية بعد زيارة الكعبة أن يزوروا تلى الصفا والمروة الصخريين وكان عليهما صنمان من البرونز ؛ وقد سار محمد (صلعم) شوطا بعيدا فى تساهله إزاء طقوس الحج الوثنية حتى أنه رضى ببقاء زيارة الصفا والمروة على ما كانت عليه قبلا ولكنه أمر بإزالة الأصنام(١)". ومعلوماتنا عن تاريخ أصل أوضاع الصلاة والسجود والوضوء والصيام غامضة وغير يقينية ومبهمة(٢) .

وقد كان يوم عاشوراء(٣) يوم صيام حتى قبل محمد ولكن صوم رمضان يبدو أنه تقليد للصوم الكبير (صوم الأربعين) عند المسيحيين ، هذا فى حين أنه يظهر أن الوضوء والسجود قد أخذا عن طائفة يهودية — مسيحية أو عن

= الحمس والحمس قريش وما ولدت ، وكانت الحمس يحتسبون على الناس يعطى الرجل الرجل الثياب يطوف فيها وتعطى المرأة المرأة الثياب تطوف فيها فمن لم تعطه الحمس طاف بالبيت عريانا » — البخارى — كتاب الحج (طبعة Krehl جـ ١ ص ٤٢٠ — خدابخش) - وعروة المذكور هنا والذى يسند إليه الحديث كان أحد قضاة المدينة السبعة وكان معروفا بأنه محدث ثقة جدا — النووى — التهذيب طبعة Wustenfeld ص ٤٢٠ ، وهذا هو الحال فيما يختص بعلى بن مسهر (راجع تعليق ١٠ من تعليقات خدابخش — المترجم) .

(١) الموطأ جـ ٢ ص ٢١٩ ، ٦٧٤ والبخارى (كتاب الحج) يقابل Sprenger, Das Leben Moh., Vol. II, p.9

(٢) أنظر ملحق رقم ٤

(٣) قابل Sprenger Das Leben Moh., vol. III, p.54 (أنظر تعليق ١١ من تعليقات خدابخش — المترجم) .

المانوية (١) . وكما أن مؤسس الدين العربي استقى من مصادر مختلفة (٢) ، كذلك سار الإسلام على طريقة الأخذ عن الغير بشكل أوسع فى مرحلة تبلوره التى أعقبت موت محمد (صلعم) ، مثال ذلك قصة عروج محمد إلى السماء التى لا يوجد فى القرآن أكثر من تلميح ضئيل إليها صار لها لون شعرى فى القرن الأول للهجرة وأصبحت بالتدريج عنصراً أساسياً من عناصر أصول الإيمان الإسلامية ، وقد نسجت الأسطورة كلها على مثال إحدى الخرافات

---

(١) لا يكاد يكون هناك شك فى أن محمدا عرف المسيحية فى شكلها الذى وجدت به بين طوائف الأبيونيين Ebionites والنصارى الذين عاشوا فى الأقليم الواقع شرقى الأردن أى البلقاء وحوران فقط ، ومن الغريب أن كلمة مسجد التى توجد فى القرآن وجدت فى نقوش ما قبل الإسلام التى اكتشفت فى حران ومن المحتمل جدا أن يكون محمد الذى ربما زار بصرى قد أخذ الكلمة والشعيرة والرسوم من هذا المصدر نفسه (أنظر مقال خدابخش المعنون مفهوم الاسلام فى القرون الوسطى فى كتابه Contributions to the his. of Isl. Civ) وكلمة جامع ترجمة للكلمة اليونانية الدالة على المعبد وتستعمل فقط فى الأزمنة المتأخرة وعلى عكس الأولى لا توجد فى القرآن ، وكلمة مسجد غير مأخوذة من اليهودية كما يتضح من معنى مادتها التى معناها فى العبرية « عبادة الصنم » (هذا الدليل غير كافى — على ما يقول الأستاذ مرجليوث — فالكلمة مستعملة فى التفسير اليهودى للانجيل بمعنى الانبطاح أمام الأله الحق أيضا — خدابخش) ويمكن أن تكون الكلمة قد استعملت فقط عند طائفة كانت عندها الصلاة مصحوبة بالسجود ، وهذا ليس حال المانوية فحسب بل حال مسيحى سورية الوطنيين أيضا الذين نستطيع أن نراهم حتى الآن يركعون أمام المذبح عند دخولهم الكنيسة ثم ينبطحون حتى تمس رءوسهم الأرض وهذه حالة يصعب تمييزها عن السجود عند المسلمين ، ولم يكن السجود مستساغا فى بلاد العرب وقد سخر منه طليحة المتنبي وأمر بتأدية الصلاة وقوفا (البلاذرى ص ٩٧) وقد أكدت الأبحاث الحديثة رأى سبرنجر القائل بأن الأرض الواقعة شرقى الأردن كانت مقر الآراء التى كانت أساسا لظهور الاسلام (كان الوضوء معروفا فى بلاد العرب الجنوبية الوثنية : أنظر D. H. Müller, Hungarische Alterthümer, K. K. Museum, Wien خدابخش)

أنظر تعليق ١٨ ، ٢١ من تعليقات المترجم — المترجم

(٢) أنظر مقدمة المترجم — المترجم

المسيحية وهى « رحـــلة النبى أشعيا إلى السماء » التى ظهرت أثناء اضطهاد المسيحيين فى عهد الإمبراطور نيرون[١] .

ومن المحتمل أن يكون قد أتى من الپرسية عن طريق اليهودية الحديث الذى يقول إن الموت فى يوم البعث سيتمثل فى صورة كبش ويذبح وسيتمتع الإنسان بحياة خالدة منذ ذلك الحين ، إذ من المحتمل جداً أن تـكون هذه الفـكرة تقليداً لأسطورة الثور Hadhayaos الپرسية المذكورة فى التلمود[٢]

ولـكن المؤثرات الأجنبية ليست واضحة فى دائرة الدين فحسب بل إنها تركت أثرها الذى لا يمحى فى الحياة المدنية والنظم السياسية عند المسلمين ، ولو أن العقل العربى لم يعجز عن إثبات استقلاله وإظهار قدرته على الابتكار . وهذا نظـام عمر السياسى الاشتراكى الديمقراطى القائم على قاعدة السلطة الدينية من أشهر مآثر التاريخ وليس فى التاريخ كله ما يمكن أن يوازن به .

وقد كان من حق المسلمين أن يتمتعوا بالمساواة التامة فى الحقوق ، وكان المقرر أن يكون دخل الدولة كله والأراضى المفتوحة ملكا عاما للمجتمع

(١) أنظر سورة ١٧ من القرآن (سورة الإسراء - المترجم) ولمعرفة الأضافات المتعاقبة عليها أنظر ابن هشام ج ١ ص ١٦٨ وما يليها والبخارى ج ٣ ص ٣٠ وما يليها (طبعة Krehl) Krehl, Das Leben, Moh. pp. 120 - 124 والحقيقة أن المنظر كله بتفاصيله يذكرنا بقوة بكتاب نوح Enoch الذى يرجع إلى ما قبل المسيح وكان معروفا ويقرأ بكثرة فى طول الشرق وعرضه ولا يبعد إطلاقا أن يكون وجود المنظر راجعا إلى أثر اليهود الذين كانوا يعرفون هذا الـكتاب Krehl, p. 124 - خدابخش .

(٢) يذكر فى التلمود أنه فى يوم البعث سيذبح ثور ويقـــدم طعاما للتقاه . قابل Z. D. M. G., XXXI,p. 583 ويذكر الغزالى فى كتابه الأحياء حديثا يعزو إلى النبى أنه قال « يوم البعث سيؤتى بالموت على صورة كبش أبيض ويذبح » الأحياء ج ٢ ص ٢٨ وفى البخارى يقال ببساطة أن الموت سيذبح بين الجنة والنار ويتفق مع هـــذا ما جاء فى القرآن فى سورة ١ آية ١٥ ، ٢٦ قابل Bawr, Cogmengesch,vol.I, p. 647.

الإسلامى وأن يتسلم كل عضو من أعضاء الأخوة الإسلامية عطاء معيناً من خزانة الدولة . ومن ناحية أخرى كان غير مسموح للعرب أن يمتلكوا الأرض أو يشتغلوا بالزراعة[١] وكان عليهم أن يؤلفوا طبقة حربية فى حين كان على الأجناس المحكومة أن يزرعوا لهم الأرض ويمدوهم بحاجياتهم .

على أنه رغم ابتكار عمر السياسى ونزعته الاستقلالية فإنه وافق على نظم فارسية وبيزنطية عديدة وأدخلها فى كل إدارة من إدارات الدولة ، ومن أمثلة ذلك نظام العملة وتقسيم الولايات الإدارى ونظام الضرائب (الجزية tributum capitis والخراج tributum soli) .

وحتى ضريبة الدخل المعروفة باسم ضريبة الفقراء لأن الوارد منها كان فى بادىء الأمر يقسم بين فقراء المسلمين (الصدقة . الزكاة . العشر) نعم هذه الضريبة عبارة عن نظام كان موجوداً منذ أقدم العهود عند الكنعانيين والفينيقيين والقرطاجنيين على شكل ضريبة للمعبد لمصلحة رجال الدين ، أضف إلى ذلك أن كلمتى صدقة وزكاة مأخوذتان من الثروة اللغوية اليهودية ، بل إن الكلمة التى تدل على إدارة الضرائب والتى أطلقت أخيراً على جميع إدارات الدولة وهى كلمة ديوان[٢] آرامية . والحقيقة أن عمر سمح بإبقاء النظام الذى وجده فى البلاد المفتوحة دون أن يلحقه تغيير واستفاد منه .

وقد أخذ العرب الشىء الكثير عن الأجانب فى المسائل الحربية ولكن كان ذلك بعد عمر بكل تأكيد . وفى بادىء الأمر كانت الحرب عندهم تشبه

---

(١) ليس هذا صحيحا من جميع الوجوه Wellhausen, Das Arab. Reich, pp. 168 et sq. خدابخش (أنظر ملحق رقم ١) .

(٢) هذا الاشتقاق محال . ويوازن لاجارد Lagarde فى كتابه Gesamm. Abhandlungen, p. 216 بين عدة كلمات إيرانية — خدابخش .

حرب القبائل البدوية تماما ولكنهم سرعان ما عرفوا الميزات التى تترتب على اتباع نظام حربى أفضل .

ويظهر أن الأمويين وجهوا عنايتهم الخاصة إلى هذا الموضوع واتبعوا النظم الحربية الرومانية الأكثر أهمية التى تعلموها فى حروبهم مع البيزنطيين ، ويرجع إدخال نظام المعسكرات الدائمة إلى وقت متقدم حقا إذ يبدأ القواد العرب يقيمون معسكراتهم بعد مسيرة كل يوم وفيها الحواجز والخنادق وبوابتان أو أربع بوابات مثلهم فى ذلك مثل الرومان تماما ، وكان العرب فى بادىء الأمر يحاربون صفوفا ثم صاروا أخيراً يحاربون فى مجموعات من الجند (كراديس) .

وكان الجند العرب فى بادىء الأمر يرتبون طبقا لقبائلهم ثم تألفت منهم أخيراً فرق مستقلة ، وكان يوضع على رأس كل عشرة رجال عريف (Decurio) وكل خمسة خليفة وكل مائة قائد (Centurio) ، وكانت أقدم طريقة لترتيب الجيوش هى تقسيم الجيش إلى قلب وجناح أيمن وجناح أيسر وأخيراً أضيفت المقدمة والمؤخرة . ولا يزال الأثر الرومانى يبدو أكثر وضوحاً فى الآلات التى كان يستعملها العرب فى الحصار وهى المنجنيق والعرادة والكبش الذى يستعمل لأحداث ثغرة فى السور والدبابة التى تستعمل لإزالة الحواجز وكانت آلة من آلات الحرب يتقدم المحاصرون فى حمايتها إلى المدينة التى يحاصرونها.

ولما كنت عازما على أن أبحث نظام الخلافة الحربى بإسهاب فى مكان آخر فإنى أقف عن متابعة هذا الموضوع بأى نوع من التفصيل فى هذا الكتاب .

وقد أشرت إلى هذا الموضوع لأنبه إلى الحقائق ولأبين المحصول الوافر الصالح للبحث فى هذا الميدان .

ولا بد أن نبحث يوماً ما الحقائق التى توضح لنا تاريخ الحضارة الإسلامية بتعمق ودقة .

وسنستطيع بهذه الطريقة وحدها أن نصل إلى النتيجة المحققة بالنسبة لكثير من المسائل الشيقة ذات القيمة العلمية ، ويجب علينا فى الحقيقة أن نحاول رفع مستوى علمنا إلى المستوى نفسه الذى يرفع إليه الجيولوجى علمه حتى أصبح يستطيع رغم كل مافى الطبقات الأرضية من تنوع أن يقول على وجه التحقيق أن هذه الطبقة ترجع إلى العصر الطباشيرى وتلك إلى العهد الجرانيتى أو عالم فقه اللغة الذى يمكنه التمييز بكل دقة بين العناصر الأصلية والأجنبية فى اللغة .

ويمدنا تاريخ الدين والحضارة الاسلامية عندما نستطيع أن نميز العناصر الأصلية من الأجنبية فيه بصورة مختلفة كل الاختلاف عما عهدناه حتى الآن وأكثر دقة .

ولذلك فقد بحثت أولا تفاصيل التاريخ الاسلامى التى بدت فيها المؤثرات الأجنبية وظهرت بقايا الحضارات القديمة ولو ظهورا غير واضح خلال غبار العصور .

وقد وجدت لدينا بهذه الطريقة قطعة من الفسيفساء ، على أن الصورة التى أردت أن أرسمها على رقعة هذه المقالة الضيقة بعيدة فى كثير من نواحيها عن أن تكون صورة كاملة بكل معنى الكلمة .

وقد حصرت نفسى فى فترة الخلافة ولم أحاول وصف بعض التغيرات الدينية الهامة التى حدثت تحت تأثير الأفكار الأجنبية فحسب بل حاولت وصف التغيرات الاجتماعية أيضا .

هذا وقد أتم الدكتور سبرنجر بحث تاريخ نزول القرآن بكفاءة عظيمة

ولذلك فلست أريد أن أبدى هنا آرائى فى ذلك الموضوع ولكن الإشارة التى قدمتها تكفى لبيان أن هذا الموضوع لم يقتل بحثا وأنه لا يزال فى الإستطاعة الحصول على نتائج عظيمة القيمة بدراسة الكتب اليهودية والبرسية وأدب القرون الأولى من التاريخ المسيحى دراسة مقارنة ودراسة تواريخ الطوائف اليهودية والمسيحية .

وإن موضوعى الآن وعلى ما يستحب أن يكون لمدة طويلة هو الخلافة منذ ظهورها حتى سقوطها ، وأرجو أن يسمح لى بأن أتعشم أن تستيقظ الرغبة فى دراسة مثل هذه الدائرة من الحياة الشرقية بفضل مثل هذه الرسالة التى يقصد بها فى الحقيقة نفع عدد قليل من العلماء وأن يرتقى العلم الصحيح الخاص بهذه الفترة .

وهناك قول لا يعوزه دليل وهو أن تاريخ الإسلام السياسى كله لا بد أن يبقى غامضا وغير مفهوم طالما بقى منفصلا عن تاريخ حضارته .

المقالة الثانية

لقد وجه الإسلام فى مبدأ أمره جموعا عديدة من القبائل العربية عبر الصحراء التى تكون حدود بلاد العرب الشمالية والشرقية نحو سورية وأراضى الفرات ، ووحد حب الغنيمة والفتح بين تلك القبائل البدوية فى عمل مشترك وفى فترة قصيرة سقطت سورية وبابل تحت أقدام الخلافة الإسلامية . وقد كان يسكن كلا من هذين البلدين أناس لهم حضارة راقية بعض الرقى منذ أقدم العصور ، وبذلك وجد العرب أنفسهم وجها لوجه أمام عناصر فكرية غريبة عنهم تماما ولم يكن فى مقدورهم يومئذ أن يتكهنوا بكامل مفعولها ، ففى سورية جابه الإسلام نظام دينى كان قد تطور تطوراً عمليا وأصبح يقوم على أساس منطقى بفضل سلسلة طويلة من المناقشات المذهبية والمجادلات ، وفى أرض بابل كانت تعيش جنبا إلى جنب عدة ديانات رائدها التسامح المتبادل الذى كان من أحسن مظاهر النظم الدينية الوثنية القديمة . وقد نتجت عن اصطدام الإسلام الشديد بتلك الديانات مركبات وآثار عديدة ، وكان لتلك المعارك الفكرية وما ترتب عليها من تغيير فى الأفكار أثر عميق فى تاريخ الشرق الدينى فى العصور التالية .

ونحن ندين لجهد المؤرخين العرب المتصل بمعلوماتنا عن تاريخ تلك الأزمنة السياسى والحربى الذى يبلغ من الدقة إلى الحد الذى يمكن تصوره وقد فصلت بيننا وبينه مسافة اثنى عشر قرناً ، ولكن التاريخ الداخلى لتلك الفترة الهامة وهو تاريخ الحرب التى شنتها ديانة جديدة جافة ضد النظم الدينية القديمة الراقية لا يكاد يعرف لنا حتى فى أفقر موجز له ، ومن أجل ذلك سأحاول هنا أن أدرس الحقائق التى يؤكدها البحث الحر وتذكر الآن لأول مرة

وتريخ اللثام عن المؤثرات الأجنبية التى تركت أثرها فى الإسلام والحضارة العربية وسأقدمها فى شكل صورة كاملة .

وقد كانت المسيحية أول نظام اتصل بالإسلام اتصالا وثيقاً ، إذ كانت دمشق فى وقت من الأوقات مقراً للخلفاء الأمويين وتقدمت فيها دون ريب فى ذلك الوقت مدرسة دينية تخرج منها بعض علماء الكنيسة الشرقية البارزين وتقدمت فى عاصمة الخلفاء حياة فكرية نشطة ، ولا بد أن العلاقات بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين كانت متشعبة ، وفى استطاعتنا أن نتأكد أن المناقشات الدينية بينهم كانت كثيرة جداً حتى ولو لم تذكر لنا المناقشات بين المسلمين والمسيحيين فى كتابات يوحنا الدمشقى وتيودور أبو قرة Abucara ، ومن المحتمل جداً أن تكون قد نشأت من تلك المناقشات الدينية الطوائف الإسلامية الأولى وهى طوائف المرجئة والقدرية (١) .

ولما كان معظم الخلفاء الأمويين قد انصرفوا إلى حياة اللهو فانهم أظهروا تسامحا عظيما حيال المسيحيين وأهالى الديانات الأخرى غير الإسلام ، فلم يكن المسيحيون يدخلون بحرية فى بلاط الخليفة فحسب بل كانت تسند إليهم أهم المناصب ، وقد تمتع سرجيوس والد يوحنا الدمشقى فى بلاط الخليفة عبد الملك بمنصب المشير الأول ، وبعد وفاته أسند المنصب نفسه إلى ابنه ، وكان أحد المسيحيين هو شاعر بلاط الأمويين الرسمى (٢) .

وقد كان مركز المسيحيين فى ذلك الوقت حسناً جداً حتى أنه كان يسمح

---

(١) [Macdonald, Develop. of Muslim Theology, p. 122 et seq, و Z. D.M.G., vol. XXXII Browne. etp. 341 seq, Lit Hist. of Persia, و Ibid, XLII. p. 591 و p. 279. — خداخش

(٢) الأخطل : الأغانى ج ١٤ ص ١٢٢ .

لهم بدخول المساجد دون أن يتعرض لهم أحد وبالسير بين الناس وهم يتحلون بالصليب الذهبي[1] . ولا بد أن التسامح الذى أظهره الخلفاء للمسيحيين شجع على كثرة اتصالهم بالمسلمين ، وقد تعلم العرب أولا التفكير الفلسفى باتصالهم برجال الدين الأغريق الذين كانوا يعلمون حق العلم فن المناقشة المنطقية وقدروه أخيراً تقديراً عظيما ، ومنهم أيضا تلقوا أول درس لهم فى دقائق الأمور المذهبية وهى فن انغمس فيه رجال العلم البيزنطيون .

وبهذا الطريق وحده يجب أن يفسر التشابه البين الذى نلاحظه فى مظاهر المسيحية البيزنطية الاساسية والتعاليم الإسلامية .

وإن البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شىء له المقام الأول فى كتابات كل من آباء الكنيسة الأغريق وأقدم علماء الدين العرب ، وأقدم علماء الدين المسلمين يشغلون أنفسهم إلى حد كبير بالابحاث التى تدور حول القضاء والقدر والارادة ومثلهم فى ذلك مثل آباء الكنيسة الشرقية ، وقد صرح آباء الكنيسة الأغريقية بأنهم ضد القول بالخلود فى النار مخالفين فى ذلك الكنيسة الغربية واتخذت هذا الرأى نفسه أقدم طائفة دينية فى الإسلام وهى طائفة المرجئة .

ومما يؤسف له أشد الأسف أن لدينا أقل قدر من المعلومات الدقيقة عن هذه الطائفة ، على أنه يجب أن نلاحظ أن ما لحقها كان هو نصيبها مما قدر لتلك الفترة جميعها ، فقد ضاعت كتب التاريخ العربية الخاصة بزمن الأمويين ، ويرجع أقدم كتاب تاريخ وصل إلينا إلى زمن العباسيين ، ومن أجل ذلك فإننا إذا أردنا الحصول على معلومات عن المرجئة نضطر إلى الرجوع إلى

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٨٢ و ج ٧ ص ١٧٩ — ١٨٧ .

الملاحظات المشتتة التى نجدها فى مؤلفات الكتاب العرب المتأخرين ، هذا وأقدم نتفة تتناول الكلام عليهم عبارة عن قطعة شعرية بقيت حتى الآن دون أن يهتم بها إنسان وقد كان نظمها فى عهد الخليفة عبد الملك وهى كما يلى[1] :

يا هند[2] انى أظن العيش قد نفدا ... ولا أرى الأمر إلا مدبرا نكدا
انى رهينة يوم لست سابقه[3] ... إلا يكن يومنا هذا فقد أفدا
با يعت ربى بيعا إن وفيت به ... جاورت قتلى كراما جاوروا أحدا
يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا[4]
المسلمون على الاسلام كلهمو[5] ... والمشركون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا ... م الناس شركا[6] إذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقا واحد جددا
من يتق الله فى الدنيا فإن له ... أجر التقى إذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ... رد وما يقض من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخط فى مقـــالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهـــدا
أما على وعثمان فانهمـــا ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥٢ (انظر مقالة عن الارجاء لفان فلوتن Z. D. M. G. vol. 45, p. 161 — خدابخش

(٢) يحتمل أن تكون المقصودة هنا هى زوجة الشاعر أو محبوبته

(٣) يوم وفاته

(٤) يقصد بهذا الذين قاموا ضد الخليفة الثالث عثمان

(٥) وهذا عكس الخوارج الذين يعتبرون غير الخوارج كفارا

(٦) هذا عكس الخوارج الذين يرون أن كل مسلم يرتكب الكبيرة كافر (أنظر Browne, p. 280. وملحق رقم ٢ — خدابخش)

وكان بينهما شغب وقد شهدا   شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى عليا وعثمانا بسعيهما   ولست أدرى بحق أية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به   وكل عبد سيلقى الله منفردا

وتتفق محتويات هذه الوثيقة[١] وهى أقدم خبر غير معروف حتى الآن عن المرجئة اتفاقا تاما مع ما عرفناه عن آرائهم من الكتاب المتأخرين[٢] ، فقد نظروا إلى هذه الحياة والحياة الأخرى نظرة أكثر أملا وثقة من نظرة الحزب السنى القديم الطاهر والخوارج المتعصبين وأنكروا بصفة خاصة خلود عذاب النار للمسلمين ، ونجد فى نظريتهم هذه اتفاقا شديدا مع نظرية الآباء الأغريق لأنه كما هو معروف نشأ تيار قوى فى الكنيسة الشرقية فى وقت متقدم ضد رأى رجال الدين الغربيين الخاص بخلود عذاب النار .

وقد كان أوريجن Origen يؤيد تأييداً قويا الرأى القائل بأن عذاب النار له نهاية ، وجميع الأسكندريين على اتفاق معه فى هذه النقطة ، وحتى معلمى كنيسة انطاكية : ديودور الطرسوسى وتيودور المصيصى ولو أنهم عادة لا يتفقون مع أوريجن فى المسائل الأخرى إلا أنهم يشاركونه عقيدته فى هذه المسألة ، وقد ناقشوا أيضاً القول بدوام عذاب النار . ويمكن أن نجد نقطة اتفاق أخرى بين الكنيسة الاغريقية والاسلام فى أن الاسلام مثل الكنيسة الاغريقية

---

(١) هذا الشعر لشاعر اسمه ثابت قطنة ويمكن معرفة شىء عن حياته فى تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٥٢ — ٥٦ قابل البلاذرى ص ٤٢٩ وابن الأثير جـ ٥ ص ٦٦ و ٧٠ و ٧١ و ٨١ و ٩٩ و ١١٠ و ١١١ .

(٢) الشهرستانى جـ ١ ص ١٦٠ و ١٦٤ فى ترجمة Harbrucker وفى كتاب الأغانى أشعار لشاعر يبدو أنه كان قد ترك عقيدة المرجئة وتلك الأشعار تتضمن آراء المرجئة التى تتفق مع آراء الخوارج ويبدو أنها تشويه مقصود — قابل الأغانى جـ ٨ ص ٩٢

لا يعرف شيئا عن تطهير روح الموتى من الآثام purgatory [1]، وإن إيمان المرجئة الهادىء الذى يغلب عليه الانشراح وتعزية النفس على خلاف الفزع والحزن الذى كان يملأ نفوس الجيل الأول من المسلمين الأتقياء ليتفق كل الاتفاق مع تعاليم يوحنا الدمشقى الذى كان وقت ظهور هذه الطائفة يشتغل بالأبحاث الدينية ويتمتع بشهرة كبيرة فى عاصمة الخلفاء الأمويين، ومن أقواله « يجب علينا أن نعلم أن الله تمشيا مع رغبته الأصلية القديمة يريد أن يكون لكل إنسان نصيب فى مملكته وقد خلقنا لا ليعذبنا بل لننال من كرمه لأنه صاحب الكرم وهو يعاقب المذنبين لأنه عادل . » [2]. وقد انتقلت كثير من آراء المرجئة إلى الاسلام فى الأزمنة المتأخرة ، ومدرسة أبى حنيفة الدينية وهى أكثر المدارس إنتشاراً ويتبعها أغلبية المسلمين الأتراك تقوم على أساس تعاليم المرجئة ، وقد قبل مؤسسها أهم مبادىء المرجئة وجاء عنه فى أقدم مؤلف عربى أنه من المرجئة [3].

أضف إلى ذلك أن أقدم مؤرخ للدين فى الأدب العربى وهو ابن حزم يتكلم عن المرجئة ويرى أنهم أقل الطوائف بعداً عن الإسلام الصحيح [4]، والحقيقة أن الحنفية ظلوا دائماً أكثر المدارس السنية الأربعة إعتدالا وأقلهم تعصبا . وقد وصلت حتى أيامنا هذه من خلال عواصف وشدائد القرون

---

(١) (يظهر أن جريجورى الأول أول من وضع نظرية تطهير الأرواح- Ebert, Littera-ture du Moyen Age vol. I p. 585. قابل Gregorovius, Gesch. der Stadt Rom., vol. II, p. 79. — خدابخش)

(٢) John Damas, Ed. Lequien, vol. I, p. 193.

(٣) ابن قتيبة ص ٣٠١

(٤) ابن حزم مخطوطة فينا

بذور الفكرة السامية العظيمة التى تدور حول الله والقضاء المقدر على الإنسان تلك البذور التى غرست منذ ألف سنة .

وعلى كل حال فهناك ظاهرة تستحق الاهتمام العظيم وهى أن من بين المدرستين العظيمتين فى الإسلام وهما مدرستا الحنفية والحنابلة والأولى منهما تمثل أكثر جوانب الإسلام إعتدالا فى حين تمثل الثانية أكثر جوانبه تشدداً وتعصباً لقيت الأولى إنتشاراً أوسع فى حين كان نصيب الأخيرة الاضمحلال الشديد . وأنى عندما أعمل حساباً للحقائق المذكورة هنا لا أستطيع أن أتأخر عن إظهار إعتقادى بأن آراء المرجئة ترجع فى أصلهـا وشكلها إلى فلسفة الكنيسة الاغريقية الدينية ، ولست أستطيع استعراض هذا الموضوع إستعراضاً تاماً لأن كتابات المرجئة فيما عدا القليل من النتف ضاعت كلها تقريباً وضاعت معها المادة اللازمة لعمل موازنة كاملة دقيقة بين تعاليمهم وتعاليم الآباء الاغريق .

ومن ناحية أخرى توجد طائفة أخرى من طوائف الإسلام فى عهده الأول تهىء لنا نقطا أخرى للتماثل والتشابه مع المسيحية وأعنى بها طائفة القدرية ، ويطلق على أتباعها اسم أحرار الفكر فى الاسلام وقد أصبح لهم فيما بعد مركز ممتاز وسموا المعتزلة ، وهناك أدلة كثيرة على أن آراء القدرية الدينية يرجع أصلها إلى حد ليس بالقريب إلى الأثر المسيحى ، ومما يستحق الملاحظة قبل كل شىء أن أفكارهم كانت متجهة بصفة خاصة إلى الطبيعة وصفات الله ، وهذا الاتجاه نفسه وجد عند رجال الدين الأغريق كما وجد عندهم فى المقام الأول أيضاً البحث عن كنه الله وصفاته ، وقد قال بفكرة حرية الارادة بعد فتح العرب لسورية بقليل كاتبان من كتاب الكنيسة كان كل منهما يعيش

فى دمشق على اتصال مستمر بالعرب وهما يوحنا الدمشقى وتلميذه تيودور أبو قره . أما الرأى القائل بأن الله يحب الخير فقط وأنه منبع الخير فقد أيده يوحنا تأييداً عظيما .

وهو يقول أنه كما ينبعث النور عن الشمس كذلك يصدر الخير عن الله ونحن نجد فى كتابات يوحنا الدمشقى (١) نظرية المعتزلة التى تقول بأن الله يستطيع أن يجازى الناس أو يعاقبهم طبقا لأعمالهم فقط ، وأنه لم يخلق الناس ليحطمهم أو ليهزأ بهم ويسخر منهم كما يشاء . وهذه النظرية عبارة عن القاعدة الأساسية لفكرة المعتزلة فى الله ويظهر أنها حازت قبول المرجئة . أضف إلى ذلك أن بذور كثير من المسائل التى تناولها علماء الدين المسلمون تظهر بكثرة فى كتابات الآباء الاغريق ، بل أننا نعثر فى الأدب الدينى عند العرب على بعض تعبيرات مأخوذة عن الاغريق ، وسأذكر فقط كلمة تعطيل التى استعملها علماء الدين العرب بدل كلمة Kenosis التى ذكرت فى الأدب القائم على تعاليم آباء الكنيسة الأولين لتدل على تنزيه الله عن صفات الخلق كلها . وإن الشكل الظاهرى وكذلك الاتجاه الذى يبدو لنا فى أقدم مؤلف عربى فى تعاليم الدين وهو كتاب صغير يعرف باسم الفقه الأكبر ليذكرنا بمقتطفات مشابهة لآباء الكنيسة ومما يذكر أيضا أنه كانت توجد مؤثرات مسيحية على طائفة المعتزلة (٢)

---

(١) Johannes Dam, De fide orthodoxa, Cap. XXX. Illud quoque scire opportet, Deum omnia praescire, sed non omnia praefinire.

(٢) الشهرستانى ج ١ ص ٦٢ وابن حزم المخطوطة والمواقف طبعة Socrensen ص ٣٤٠ (قال الغزالى إن أساس الاثنين وسبعين فرعا من فروع الدين ست نظريات هى : التشبيه والتعطيل والجبر والقدر والرفض والنصب De Sacy, Chrest Arabe, II, p. 90 - Dabistan, vol. II, pp 350 I seq. - خدابخش)

وعلى ذلك فانه يحق لنا أن نرى أن تطور الطوائف الدينية فى أيام الإسلام الأولى والمبادىء المذهبية التى صدرت عنها حدث تحت تأثير الآراء المسيحية بوجه خاص ، وهذا الرأى جديد ولكن لا ينقصه التدليل . وعلى ذلك فهناك صلة مباشرة بين مبادىء المرجئة والقدرية من ناحية وبين آراء آباء الكنيسة الاغريقية كما تبدو فى كتابات مدرسة دمشق من ناحية أخرى (١) .

وقد بلغت مبادىء المعتزلة التى يحتمل أن تنسب إلى دمشق وقت أن كانت مقراً للخلفاء الأمويين أقصى تقدم عظيم لها فى البصرة والكوفة وبغداد بفضل التقلبات السياسية التى نقلت مركز الدولة الإسلامية من دمشق إلى بابل .

ولا يدخل فى دائرة بحث هذا الكتاب مستقبل هذه الطائفة التى كان لها أثر عميق فى نشاط العرب الفكرى كله ، وسنولى وجهنا بدلا من هذا صوب الأراضى الواقعة فى شاطىء الفرات حيث لحق الإسلام من جراء العناصر الأجنبية التى احتك بها أثر من نوع آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف .

وقد كان يعيش وقت الفتح العربى أناس من أديان مختلفة جنباً إلى جنب

---

(١) لتأييد القول بأن طائفة القدرية أصلها من دمشق أذكر هنا بعض التواريخ : كان معبد الجهنى (+ ٨٠ هـ = ٦٩٩ م) أول من علم فى دمشق نظرية حرية الارادة ويقال إنه تلق هذه النظرية عن فارسى اسمه سنبويه De. Sacy, Hist. des Druses, . Senbuyeh وطبقا لما Hammer, *Lit.* Gesh. d. Araber, vol. II, p. 153, vol. I, p. X, ذكره الذهبى فى كتاب العبر أمر الخليفة عبد الملك بقتله لأنه علم نظرية حرية الارادة ، وطبقا لأقوال أخرى قتله الحجاج . وقد علم جيلان بن يونس (مات سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ م) أيضا نظرية حرية الأراده وقتله الخليفة هشام — ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٧ ، وطبقا لما ذكره الذهبى فى كتاب العبر اعتنق الخليفة يزيد الثانى مبادىء القدرية (قابل الفخرى ص ١٦٠) ويقال إن الشاعر ميمون (بن قيس) المسمى الأعشى الذى اشتهر فى عهد خسرو برويز وبذلك كان معاصرا لمحمد كان قدريا . ويقال إنه أخذ هذه النظرية عن العباد أو مسيحى الحيرة وقد مات سنة ٦ أو ٧ هـ 480 — 471 De. Sacy, Chrest. Arabe, vol II. pp. ـ خدابخش)

فى الأراضى الجميلة الواقعة على شواطىء الفرات ودجلة وهى منطقة من أحسن مناطق الأرض ، فكان الفرس الحاكمون يعتنقون مبادىء زردشت وكانت المسيحية قد حازت نصرا ملحوظا وأصبحت لها السيادة فى بعض المدن ، وكانت قبائل بدوية برمتها ممن اختاروا الجزيرة مرعى لهم قد دخلت حقا بكاملها فى حوزة الكنيسة [١]، ثم كان هناك أتباع الديانة التى أسسها مانى وهى ديانة نشأت من اتحاد دين زردشت بالأفكار المسيحية والهندية [٢]، وأخيراً كان يعيش هناك عدد كبير من أتباع الديانات الوثنية القديمة ، وقد بقيت آخر طائفة منهم وهى طائفة الصابئة فى حران حتى القرون الوسطى وبقى كثير من العادات الوثنية الأصلية إلى وقت متأخر إلى حد ما ومثال ذلك عيد أدونيس (تموز) وعبادة بعض الأسرات التى يوجد مثل لها حتى فى القرن السابع الهجرى [٣].

---

(١) كان جزء كبير من قبيلة ربيعة التى كانت تقيم فى الجزيرة الشمالية يعتنق المسيحية — العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٩ وما يليها والأغانى ج ٢٠ ص ١٢٧ ، وكذلك كانت قبيلة تغلب مسيحية وحتى زمن عمر الثانى كان يوجد مسيحيون من البدو — سراج الملوك مخطوطة فون كريمر ص ١٣٦ ، وفى سورية أيضاً كانت القبائل العربية لخم وجذام وبلقين وبلى وعاملة التى كانت قد استقرت هناك قبل محمد قد قبلت المسيحية (يذكر ابن خلكان أن القبائل العربية الثلاث التى قبلت المسيحية هى تنوخ وبهراء وتغلب ج ١ ص ٩٧ — خدابخش)

(٢) (راجع كتاب الاستاذ Browne وهو Lit Hist. of Persia, p. 154 et seq — خدابخش)

(٣) Gesch. d. herrsch. Ideen, p. 14. ظلت بقايا الدين الوثنى القديم مدة طويلة، وأريد أن ألاحظ هنا أن الحزن لفقد أدونيس استمر حتى زمن متأخر من القرون الوسطى على هيئته الخاصة به . وكان من عادة الناس أن يفردوا يوما للحزن العام فى وقت معين من كل سنة وكان نساء ورجال الطبقة السفلى يضربون فى ذلك اليوم وجوههم وصدورهم ويبكون لوفاة ابن عفريت يسمونه عنقودا وبالاضافة إلى هذا كانوا يغنون ويقولون « ياأم عنقود لاتغضبى علينا أننا لم نعلم أن عنقوداً قد مات » .

وكان من أثر تعالى المسلمين الفاتحين الذين عاملوا سكان الأراضي المفتوحة معاملة العبيد وأثقلوا كاهلهم بأنواع مختلفة من أثقل الأعباء ومن أثر المبادىء الظالمة الجامدة التي وضعها الخليفة الثاني الذي حرم على العرب تحريماً باتاً امتلاك الأرض وزراعتها لكي يجعلهم طبقة عسكرية ممتازة أن اعتنق الإسلام هنا كما في الجهات الأخرى كثيرون . وقد بيع عند الفتح كثير من سكان تلك البلاد بيع الرقيق ، وبعد ذلك فقط عند ما اعتنقوا الإسلام حصلوا على حريتهم التي بفضلها أصبحت لهم علاقة الموالى بسادتهم .

ولو عرفنا أنه طبقاً لمفهوم القانون عند العرب يبقى أبناء الموالى بالنسبة لأبناء سيدهم في المركز نفسه الذي كان للمولى حيال سيده الأصلي لاتضح لنا عندئذ سرعة نمو طبقة المولدين الذين نتجوا من سكان البلاد الأصليين والذين كانوا في مركز الموالى بالنسبة لغزاتهم من العرب .

وهكذا اتسعت دائرة المسلمين الجدد التي لايقف توسعها عند حد ، وقد ظل جزء من هؤلاء مخلصين في قرارة نفوسهم لمعتقـــداتهم الدينية القديمة وقبلوا الإسلام ظاهرياً فقط في حين أن كثيرين صاروا متحمسين حقاً لتعاليم الإسلام الذي كان نجاحه العجيب ينبىء عن صدقه وطهارته .

وقد كان رباط هذا الدين العام هو الذي وحد بين هذه العناصر المتنافرة المختلفة ولكن عند أول صدمة ظهر أن رابطة الاتحاد هـذه واهية وضعيفة جداً فانفكت .

وقد حدث هذا أثناء الحرب الأهلية بين علي ومعاوية ، إذ تكون حزب ديمقراطي يتألف بصفة خاصة من العناصر العربية الأصلية ويعادي كلا من المتنافسين على العرش على السواء ، وسارعت إلى علي عصبة كبيرة متعصبة

رأت فيه خليفة النبي الشرعي ولصقوا به شيئا فشيئا فكرة الملكية الألهية الفارسية القديمة كما عبدوا عليا وأبناءه على اعتبار أنهم أنبياء ، وبهذا ظهرت طائفة الشيعة الدينية الكبيرة جداً والتي أصبحت لها أهمية عظيمة في تاريخ الشرق في الأزمنة المتأخرة . وقد كان الفرع المتغالى منها يعتبر عليا إلها في حين كان الأكثر اعتدالا منهم يرون في خلفائه رجال الدين الشرعيين في الإسلام في المسائل الزمنية والروحية [١] . على أنه من الظلم أن ننسب الأثر الأكبر في أصل الشيعة إلى الأفكار الشرقية القديمة فقط التي ربما كانت فارسية لأننا نجد من بين أوائل الشيعة وأقدمهم رجالا ممتازين من أصل عربي خالص ، وقد أصبح هؤلاء شيعيين لأنهم في أثناء النزاع الكبير بين معاوية وعلى على العرش أعلنوا أنهم في جانب هذا الأخير ووجدوا في حزبه زملاء كثيرين من الفرس وغيرهم من الأجانب الذين لقيت آراؤهم الدينية القبول عندهم تدريجيا .

وهكذا نعثر عند أقدم أنصار الشيعة من العرب على اعتقاد يحمل أثراً واضحا لا يمكن تجاهله لدين غير عربي ولا يمكن أن يكون هذا الاعتقاد قد تطور محليا وهو النظرية المعروفة في الكتابات العربية بالرجعة ، وكان معنى الرجعة [٢] في لغة ذلك الوقت الاعتقاد بأن أحد أبناء على سيقوم من بين

---

(١) يقول السيد الحميرى وهو شيعى متحمس مستهزئاً بآراء الفريق الأول « ذهب بعضهم بعيدا جدا في مدائحهم لعلى — قتل آباؤهم — ومن حبهم الشديد له عرضوا أرواح الناس للخطر وهم يقولون إنه الله ، ولكن الله خالقنا تعالى عن أن يكون ولداً أو والدا ، » (أنظر ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٤١ حاشية ٢ و Z. D. M. G., vol 52, p. 466 وابن خلكان جـ ٣ ص ٣٠٢ — خدابخش)

(٢) الأغاني جـ ٧ ص ٨ و ٢٤ ، جـ ٨ ص ٢٧ و ٣٣ و ٣٤ و ٤٢

الموتى وأن جميع الناس سيعودون إلى الحياة بعد فترة لا تقل عن أربعين يوما

وقد أدت هذه النظرية إلى خلل عقلي من نوع خاص عند من يعتقدون فيها لأنها كانت تشيع بينهم احتقاراً غريبا للموت . وقد كان أحد الشيعة العرب ويسمى خندق مقتنعا كل الاقتناع بالرجعة إلى حد أنه أكد لأصدقائه أنه على استعداد للتضحية بنفسه فى سبيل الصالح العـــام إذا اهتموا بتقديم ما يلزم لأسرته [١] ، وقد قدم له أحد أصدقائه التأكيد اللازم وعندئذ ذهب إلى مكة وقام بين الحجاج المجتمعين وبدأ بصوت عال يمطرهم وابلا من التأنيب واتهمهم بالتخلى عن أسرة النبى وهم رجال الدين الشرعيون فى الإسلام [٢] . والحقيقة أنه كان هناك عدد كبير من أمثال هؤلاء المتحمسين الذين كانوا يعتقدون أن الخلافة لأبناء على ولهم وحدهم وكانوا يقبلون على الموت معتقدين اعتقاداً راسخا بأنهم سيعودون إلى الحياة بعد قليل ، بل إنه حتى فى الوقت الحاضر يظهر الاعتقاد بالرجعة بين شيعة فارس ويتبين هذا من تاريخ ثورة البابية ، وقد بقى هذا الاعتقاد الدينى نفسه بين النصيرية لأنهم فى ملتهم يطبقون نظرية الرجعة على ظهور الإله دائما فى صورة الإنسان ، وفضلا عن ذلك فانه يقال إن عربيا شيعيا يسمى كثير الشاعر يعد من طائفة الكيسانية أو الخشبية (وكلا الإسمين يطلق على طائفة واحدة) كان يعلم نظريات تناسخ الأرواح والتجسد فى أشكال مختلفة ، وهذه النظريات ترجع فى الحقيقة إلى

---

(١) فى كتاب الأغانى ج ٨ ص ٣٣ اسمه خندف وكذلك فى مخطوطة فينا ولكن فى ج ١١ طبعة القاهرة ص ٤٦ نجد اسمه خندق ويظهر أن الأخير أصح .

(٢) كتاب الأغانى ج ١١ ص ٤٦ وكان السيد الحميرى يعتقد أيضاً فى الرجعة كما هو واضح من نبذة من الشعر لا توجد فى كتاب الأغانى ولكنها توجد فى العقد الفريد :

أصل مانوى (١) . أما نظرية الرجعة والبعث فمن أصل يهودى مسيحى كما يستدل على ذلك من وصف بعث المسيح .

ويتضح من هذا أن الاعتقاد فى الرجعة كان شائعا فى ذلك الحين وربما قبل هذا وطبقا للاعتقاد الشائع لم يمت الأنبياء نوح وإلياس بل بقى جسم كل منهما تدب فيه الحياة فى قبريهما فى حبرون . وتوجد مدة الأربعين يوماً فى الأحاديث المسيحية أيضا كما توجد عند الطوائف الإسلامية الأولى هذه .

ويتفق مع هذا الرأى تحديد حياة المسيح على الأرض بعد البعث بأربعين يوماً فى تاريخ الرسل (الفصلان ١ ، ٣ — يقابلها أنجيل لوقا ٢٤ ، ٢٣ — ٤٣) وفى فصول الرسل فقرة تشير إلى نظرية الرجعة حيث يوجد كلام عن إعادة كل شىء إلى أصله (٣ ، ٢٠ و ٢٢) وقد نشأت منها فى القرن الأول المسيحى فكرة الألف عام التى سيملك فيها المسيح على الأرض . وإن هذه الملاحظات لتكفى لتصوير التغييرات الخطيرة التى طرأت على الإسلام تحت تأثير الحضارة الأجنبية ، على أن مثل هذه التأثيرات لم تعمل عملها بقوة فى المسائل الدينية فحسب بل إنها كانت أشد تأثيراً فى الميادين الاجتماعية أيضا .

وسأقوم بدراسة هذه الناحية من الموضوع فى الصفحات التالية فأقول : سبق أن أشرنا إلى أنه بعد الفتح العربى مباشرة تكونت طبقة كبيرة العدد جداً من المسلمين الجدد على أثر اعتناق أهل منطقة بابل الإسلام . وقد كانت علاقة طبقة المولدين هذه بالعرب الفاتحين هى علاقة الموالى ، وقد بحثت معنى

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣٣ — قابل عن الأفكار المانوية Neander, Allgem. Gesch. d. chirstl. Kircha vol.IV. aufl. II., p. 180. وكذلك تعترف البوذية بمهدى Maitrêya يظهر فى آخر الزمان .

هذه الكلمة بحثا وافيا فى مكان آخر[١] . وقد كان المجتمع فى المملكة الساسانية القديمة يكاد يكون إقطاعياً بكل معنى الكلمة إذ كان دائرة واسعة للأرستقراطية الوراثية ، أرستقراطية الدهاقين[٢] الذين كانوا يملكون الأرض ويستأثرون بالخير ويكونون حلقة الاتصال بين الملك والأهالى . وقد أنقذت هذه الطائفة الإقطاعية الموسرة بقايا النفوذ الذى كان لا يزال لها باعتناق الاسلام فى الوقت المناسب وسرعان ما صار لها النفوذ والثروة كما ضمنت لنفسها مناصب جمع الضرائب المربحة[٣] .

وقد زادت سلطة الدهاقين إلى حد أن الخليفة المتعصب (كذا) عمر الثانى الذى افسد المالية إفساداً تاماً باجراءاته الادارية العنيفة وبذلك يحتمل أن يكون قد عجل سقوط الدولة الأموية اضطر إلى إصدار أمر يحرم فيه استخدام الفرس والمسيحيين فى ديوان جمع الضرائب أو فى أى ديوان عام آخر (ابن الأثير ص ٤٨ حـ ٥)[٤] ، على أن هذا الأمر لم يكن له أى أثر ويذكر الدهاقين فى الكتابات العربية الأولى بصفة ملاك للارض أغنياء فى الغالب .

ومن المحتمل أن يكون أغلب هؤلاء الدهاقين قد أصبحوا آمنين مطمئنين وأصبح لهم نفوذ لأنهم صاروا موالى لأحد القواد أو أحد كبار رجال الدولة أو لعضو من أعضاء بيت الخلافة ، فقد جرت العادة بأن الأجانب

---

(١) البلاذرى طبعة دى غوية ص ٢٨٠

(٢) Gesch. d. Herrsch. Ideen, p. 343.

(٣) Mohl. Le Livre des Rois, Introduction.

(٤) قابل فيما يختص بالعطاء الذى منحه عمر لدهقان يتحول إلى الاسلام : البلاذرى ص ٤٥٧ وابن الأثير جـ ٤ ص ١١٦ و جـ ٥ ص ١٦٧ .

الذين يدخلون فى الاسلام يصبحون موالى لرجل الدولة أو القائد الذى اعتنقوا على يديه الإسلام ثم توطد هذا الإجراء تدريجيا وبمرور الأيام اعتبرت علاقة المولى بسيده أثراً من آثاره [1] .

ومن المحقق أن الطبقات الدنيا فى الولايات المفتوحة فى الأمبراطورية الفارسية البائدة أصبحت موالى [2] برمتها ، وبذلك أصبح يوجد فى الولايات الجديدة سلم الطبقات المتدرج الآتى : (١) العرب الفاتحون وأبناؤهم (٢) المسلمون الجدد [3] أى المواطنون والموالى الذين اعتنقوا الإسلام حديثا (٣) السكان غير المسلمين . وكانت الطبقة الأخيرة لا حقوق لها تقريبا إذا لم تكن تحتمى بمعاهدة خاصة وكان عليها أن تعمل وتقدم الأموال للحكومة الجديدة بقصد معونة الجيش والمحافظة عليه بصفة خاصة . وعلى العكس من ذلك كانت الطبقة الثانية تتمتع نظريا بالحقوق والميزات التى يتمتع بها العرب الخلص وذلك طبقا للمبادىء الاشتراكية الديمقراطية التى أعلنها عمر والتى كان بمقتضاها كل المسلمين سواسية ولهم جميعا حق المشاركة فى دخل الدولة . على أنه ربما لا توجد مثل العرب أمة أخرى جمعت بين الشعور بالاستقلال الواضح البين وبين النزعة الارستقراطية الشديدة والاحساس الزائد بالعزلة حيال الأجانب . وقد عجز الفاتحون العرب وأبناؤهم عن أن يفهموا مرة واحدة أن الدخول فى الإسلام رفع الأجنبى إلى المستوى الذى يؤهله للمساواة بالعربى الأصيل ، واعتبر العربى نفسه دائماً من الأمة الحاكمة التى عهد إليها

---

(١) لقد بين ولها وزن بصفة قاطعة عدم صحة هذا الرأى أنظر ص ١٦٦ ومايليها فى كتاب: Das Arabische Reich und Sein Sturz (خدابخش) .

(٢) الفهرست ص ٤٠ .

(٣) البلاذرى ص ٣٧٣ وابن خلدون : المقدمة ص ٣٠٠ و ٣٠٢

بحكم الأجانب أو المتبربرين أو العجم. وعندما صرح محمد (صلعم) فى إحدى خطبه بأن جميع المسلمين سواء وأن ميزات الجاهلية وفروقها قد ألغيت لم يكن يدور بخلده مطلقا أن الإسلام سيشمل يوما ما حتى غير العرب [١] وعلى ذلك فقد كان فى الامكان أن تدخل الأمة المفتوحة فى الاسلام ولكن أفرادها لم يكونوا رغم ذلك يمنحون المساواة التامة. وقد كان الموالى يرون أنهم يستحقون المساواة التامة بالعرب لأنهم كرسوا أنفسهم للدراسات القيمة التى كان لها أكبر احترام وهى قراءة القرآن وتفسيره وعلوم الحديث والفقه، وغالبا مايبدو أن الموالى بصفة خاصة (معنى الموالى المسلمون من غير العرب) هم الذين كانوا يقومون بهذه الدراسات العلميه فى القرنين الأولين للهجرة [٢]، وكان العلماء من بينهم، وكلما كانت طبقة العلماء تزداد نفوذاً كلما كان يزداد نفوذ الموالى وكانت هذه الطائفة تشعر بثقل وطأة خضوعها للطبقة الحاكمة المؤلفة من أبناء الفاتحين.

وقد كانت الإجراءات المتعلقة **بملكية الأرض والضرائب** بصفة خاصة هى أخطر مصدر للتذمر والاضطرابات لأن العبء الذى يترتب عليها لم يكن ينطبق عليه مبدأ المساواة. وهذا الموضوع له أهمية عظيمة فيما يتعلق بفهم ظروف الخلافة السياسية والأوضاع الاجتماعية إذ ذاك فهماً صحيحاً وتقديرها على حقيقتها، وهذا الأمر يجعلنى أحس بضرورة تناوله هنا بشىء من العناية. فقد أصبح أمر وضع العلاقة بين السكان الأصليين والفاتحين على قواعد ثابتة

---

(١) لا أشارك فون كريمر فى هـذا الرأى (فيما يختص بخطبة الرسـول أنظر Krehl, Dasleben Moh. pp 297, 380. والبخارى طبعة Krehl ص ٨ وتاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٩ وما يليها) ـ خدابخش.

(٢) قابل Goldziher, Muhammedanische Studien, vol. I, p. 169. خدابخش

وحل المسائل الخاصة بملكية الأرض ذا أهمية حيوية عندما وجد العرب أنفسهم بعد فتح منطقة بابل يملكون بقعة من أجمل وأخصب بقاع الأرض آهلة بالسكان متقدمة فى الزراعة بفضل أهلها الزراعيين ، وقد زاد محصولها فى الحقيقة تحت الحكم الفارسى إلى عشرة أمثال ما كان عليه بإدخال نظام محكم للرى والقنوات ، وقد سمى العرب هذه المنطقة السواد ولم يكد يتم فتحهم لها حتى قام بينهم نزاع على ما سيتم بشأنها وبشأن سكانها[١] ، فقد طالب الجند العرب باعتبارها غنيمة حرب وطلبوا أن توزع عليهم كلها بعد إخراج الخمس للدولة وأن تعتبر ملكا لهم ويعتبر السكان أرقاء ، إلا أن عمر قاوم هذه الطلبات وقرر على مسئوليته الخاصة أن يبقى السواد بدون تقسيم وبغير أن تنقل ملكيته على أن يكون من أراضى الدولة وأن يخصص دخله من الآن فصاعداً للمصلحة العامة للمسلمين وأن يزرع أهالى السواد الأرض كما كانوا يفعلون فيما مضى من الزمان وأن يدفعوا ضرائب الأرض والرأس وألا يعاملوا معاملة الأرقاء ، ومن جهة أخرى سمح بتقسيم الأملاك المنقولة والماشية التى توجد فى السواد بين الجند بصفة غنيمة حرب بعد خصم الخمس للدولة[٢] .

وهذا القول يتفق كل الاتفاق مع ما اقتبسته عن الموضوع فى ظرف سابق من ابن عساكر[٣] ، أضف إلى ذلك أن عمر كان قد وعد بربع أرض السواد لقبيلة بجيلة التى كانت قد قدمت ربع الجيش الذى هزم الفرس فى معركة القادسية الفاصلة ، ولكنه فيما بعد عندما رأى أنه لا يستطيع أن يجيب طلبات بقية الجيش على هذا النحو نجح فى حث قبيلة بجيلة على التنازل عن طلبها فيما

---

(١) أنظر تعليق ١٢ من تعليقات خدابخش ــ المترجم

(٢) البلاذرى ص ٢٦٧ .

(٣) Gesch. d. Herrsch Ideen, p. 460

يختص بالسواد فى مقابل حصول كل فرد من أفرادها على زيادة العطاء الذى يدفع من بيت المال إلى ألفى درهم (حوالى ١٤٠٠ فرنك)[١] . ولا شك فى أن سياسة عمر هذه كانت سياسة رشيدة إذا راعينا أن دخل السواد كان يبلغ سنوياً مائة وعشرين مليوناً من الدراهم (حوالى ٨٤ مليون فرنك)[٢] . ولكى نكون رأياً صحيحاً عن مركز السكان غير المسلمين يجب أن نلقى نظرة على نظام الضرائب الذى وضعه عمر ، فإن عمر بعد الفتح مباشرة أرسل وفداً لمسح السواد قدر الأرض الصالحة للزراعة بحوالى ستة وثلاثين مليون جريب (ربما زادت قليلا على عشرة ملايين ونصف مليون فدان) .

والجريب مقياس مربع يقال إنه يساوى ٣٦٠٠ ياردة مربعة ، والياردة العربية كانت مثل الذراع الرومانى (Cubitus) ، فإذا اعتبرناها مساوية للقدم الرومانى بالتقريب لأنها أقل منه بمقدار الثلث كان الجريب يساوى المقياس الرومانى المسمى كليما (Clima) وهو عبارة عن ٣٦٠٠ قدماً مربعاً ، وكذلك كان الجريب يســـاوى ٣١٤ متراً مربعاً (الكليما Clima = ٣١٤,٨٦ متراً مربعا) . وعلى ذلك تكون الأرض الصالحة للزراعة كلها حوالى $1\frac{1}{8}$ مليون هكتار (٩ هكتار = حوالى $1\frac{1}{2}$ فدان) . وقد كانت تجبى عن كل جريب ضريبة مقدارها درهم واحد عينا وقفيز واحد نوعا (الدرهم حوالى سبعين سنتيما) والقفيز مكيال ذكره زنوفون Xenophon فى كتابه العنبسيس Anabasis [٣] ، باسم Kapithe وكان يساوى مكيالين بالمكيال

---

(١) البلاذرى ص ٢٦٨ .

(٢) الماوردى طبعة Enger ص ٣٠٥ يحدد البلاذرى الدخل بمائة مليون درهم ص ٢٧٠ (ياقوت ج ٣ ص ١٧٩ - خدابخش) .

(٣) راجع تعليق ١٩ من تعليقات المترجم

المسمى Choenix ، ويختلف العرب فى تقدير القفيز ولكنه يساوى عندهم عادة ستة وتسعين رطلا ، وبجانب هذه الضريبة كانت تجبى الضرائب الأخرى الآتية من السكان غير المسلمين : عشرة دراهم عن كل جريب من البلح وعشرة دراهم عن كل جريب من الكرم وستة دراهم عن كل جريب من القصب وأربعة دراهم عن كل جريب من القمح ودرهمان عن كل جريب من الشعير . وأخيراً كانت تفرض ضريبة الرأس وتجبى على الوجه الآتى : (١) الطبقة العليا ٤٨ درهما (٢) الطبقة الوسطى ٢٤ درهما (٣) الطبقة السفلى ١٢ درهما ، وكان النساء والمسنون مع ذلك يعفون من ضريبة الرأس ، وكانت تجبى فقط من الرجال البالغين . وكان يجب على جميع غير المسلمين أن يحملوا حول رقابهم خاتما من الرصاص يحتمل أنه كان يستخدم كعلامة رسمية تفيد عند جمع الضرائب ، وقد وزع المشرف على الضرائب من قبل عمر فى جهة السواد ٥٥٠,٠٠٠ علامة من هذه العلامات[١] ، وكان سكان البلاد المفتوحة جميعهم تحت إدارة الفاتحين غير المقيدة وحرية تصرفهم ، نعم تحت إدارة هؤلاء الفاتحين الذين لم يتعد عددهم المائتى ألف . على أننا حتى الآن لانلاحظ فى نظام الضرائب شيئا يمكن أن نعتبره مجحفا ، ولكن يجب ألا ننسى أن السكان الأصليين قد نزلت بهم وقت الفتح خسارة كبيرة فى الأملاك وأنهم صاروا مرغمين على تقديم المئونة للجنود الذين قد يمرون فى البلاد ، ففى مصر كان للمسلمين الحق فى الضيافة ثلاثة أيام فى منزل كل قبطى (السيوطى - حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٢) وفى سورية كانت القاعدة نفسها متبعة وربما كانت فى العراق أيضا . وفضلا عن ذلك فإن أهالى البلاد المفتوحة كان عليهم أن يحافظوا على القنوات والسدود والجسور ومن المحتمل أنه كان

---

(١) راجع تعليق ١٣ من تعليقات خدابخش

عليهم أن يعرضوا خدماتهم فى الشئون الحكومية الأخرى . ونحن نعلم أيضاً أن ضريبة الأرض التى كان يجب على كل فرد من أفراد الرعية أن يقوم بسدادها أصبحت تعتبر مبلغا ثابتا لا يمكن إنقاصه بأى حال[١] ، ولكن فى مثل هذا المجتمع كان نقص السكان معناه ضعف القدرة على دفع الضرائب ، ولهذا السبب بالذات طلب عمر من ولاته تخفيف الضرائب عندما أصبحت الرعية عاجزة عن القيام بتبعاتها ، ونحن لا نستطيع أن نشك فى أنه قد حدث نقص فى السكان فى فترة قصيرة وسرعان ما كان لهذا النقص أثره المحسوس ، إذ الحقيقة أن الكثيرين تخلصوا من الحكم الأجنبى بالفرار والهجرة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى دخل الكثيرون فى الإسلام . وقد سعى عمر لوضع العراقيل فى سبيل الدخول فى الإسلام فقرر أنه عند اعتناق الإسلام يمكن الاحتفاظ بالأملاك المنقولة فقط أما الأرض وما يتصل بها من فوائد فيجب أن تكون للحكومة . وأيا كان شعور المسلمين الجدد بالضيق من جراء هذا الأمر فان شعورهم بالضيق كان أشد عندما أمروا بدفع ضريبة الرأس التى كانت مفروضة عليهم قبل تحولهم إلى الإسلام وذلك تفاديا للنقص الشديد فى الدخل . وفضلا عن ذلك فانه يبدو أن المسلمين الجدد لم يتمتعوا أبداً بمزية المساهمة فى العطاء أو على كل حال لم يتمتعوا بها بانتظام[٢] . وأخيراً فى عهد الخليفة الثالث عثمان عندما أهملت إهمالا تاما نظريا وعمليا مبادىء عمر القاضية بعدم استطاعة المسلم تملك الأرض لم يمتلك المسلمون الأرض فحسب بل احتفظ

---

(١) قابل Mullar Islam im Morgen — und Abendland, vol. I, pp. 281 — 2. Von Kremer Cultur,geschihcte, vol. I, pp. 277, 439 et seq خدا بخش

(٢) قابل ابن الأثير جـ ٥ ص ٣٧ و ٤٤

أيضا غير المسلمين بممتلكاتهم ، وكان أقدم الفقهاء على استعداد لوضع قواعد فى غير مصلحة المسلمين الجدد ، وقد جاهروا بالاقتراح بأنه يجب على المسلمين الجدد أن يدفعوا ضريبة الأرض طبقا لما كان متبعا من قبل بالإضافة إلى ضريبة الرأس التى كانت مفروضة عليهم بينما يجب على المسلمين الأصليين أن يدفعوا العشر فقط (١) . وفى عهد عثمان عندما وضع حزب مكة الارستقراطى الحكومة تحت إشرافه سمح لنفسه بأكبر حرية ممكنة فاستولى على أراضى واسعة بل وادعى أن السواد ملك له بلا منازع لأنه كما قال هذا الحزب «السواد بستان قريش» يمكنهم أن يأخذوا منه مايشاءون (٢) ، وبذلك صارت العلاقة فى البلاد المفتوحة بين عناصر السكان المختلفة متوترة شيئا فشيئا .

ويمدنا مؤلف قديم ثقة ببعض المعلومات الخاصة بمركز الموالى ، وهى تبين لنا كيف كان العرب يعاملون الموالى معاملتهم لجنس أقل منهم مكانة ، ونحن نقرأ فى العقد الفريد لابن عبد ربه العبارة الآتية (٣) المأخوذة ملى ما يظهر من كتاب الجاحظ عن الموالى وهى : «قدم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من أهل الموالى يصلى به فقالوا له فى ذلك فقال إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ، وكان نافع بن جبير هذا إذا مرت به جنازة قال من هذا ،

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٧ وياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٨ — ٥١ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٧٤ وابن خلدون — التاريخ العام من طبعة القاهرة ج ٣ ص ٨٧ — تستعمل هنا كلمة مسلمين لتدل على أبناء الفاتحين تمييزاً لهم عن «المسلمون الجدد» الذين كانوا من أهالى البلاد المفتوحة واعتنقوا الاسلام .

(٢) الأغانى ج ١١ ص ٣٠ والمسعودى ج ٤ ص ٢٦٢ (طبعة باريس) .

(٣) طبعة القاهرة ص ٧٣ ج ٢ (ص ٩٠ — المترجم) — كان الجاحظ تلميذاً للنظام أحد أتباع المذهب العقلى — أنظر ابن خلكان ج ١ ص ١٨٦ ملحوظة ٤ — ومات الجاحظ بالبصرة فى المحرم سنة ٢٥٥ هـ (ديسمبر — يناير سنة ٨٦٨ م) ابن خلكان ج٢ ص ٤٠٩ — نحدا بخش

فاذا قالوا قرشي قال واقوماه ، وإذا قالوا عربى قال وابلدتاه ، وإذا قالوا مولى قال هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما يشاء ، قال وكانوا يقولون لايقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار أو كلب أو مولى وكانوا لايكنونهم بكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون فى الصف معهم ولا يتقدمونهم فى الموكب وإن حضروا طعاما قاموا على رؤسهم وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب[١] ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الذى يحضر غريراً ، وكان الخاطب لايخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخطبها إلى مواليها (Patronus فى القانون الرومانى) فان رضى زوج وإلا رد ، فان زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وإن كان قد دخل بها وكان سفاحا غير نكاح » .

ويتضح من العبارة السابقة كيف كانت رغبة العرب فى السماح للمسلمين الجدد بالمساواة المطلقة ضئيلة ، وقد كان العربى الأصيل يعتبر نفسه أرفع وأشرف من المسلم الجديد الفارسى والشامى . وقد ترتب على هذه العلاقات ظهور حزب يعرف باسم « الشعوبية » أى « أنصار الشعوب[٢] » لم يجعل مبدأه الأصلى مساواة العرب والأجانب التامة فحسب بل سار إلى أبعد من هذا وقال إن الفرس أرفع منزلة من العرب ، وقد اعتمدوا فى هجومهم على سيادة العرب على عدة آيات من القرآن وعدة أحاديث للرسول تتضمن المساواة

---

(١) يوجد تقسيم المجتمع العربى إلى قرشي وعربى ومولى فى المسعودى ج ٥ ص ٢٧ ، ومعنى عربى عربى حر لاعربى من أصل شريف . وفى البلاذرى ص ٤٥٥ يوجد التقسيم التالى صريح أى عربى أصيل ــ وحليف . ومولى . ملحق رقم ٣ . — (راجع تعليق ١٤ من تعليقات خدابخش — المترجم)

(٢) راجع Browne, Lit. Hist. of Persia, pp. 265-270 — خدابخش

بين جميع المسلمين ، فني القرآن[١] « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » ، وكانوا يقتبسون من خطبة الوداع التى ألقاها النبي « أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب . ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى[٢] » . وقد رد العرب بأن هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يجب الا تؤخذ حرفياً اللهم إلا فى أن جميع المسلمين يجب أن يعتبروا متساوين أمام الله وفى الحياة الأخرى فيما يختص بالفروض الدينية ولكن لا مجال للأخذ بها ولا معنى لها فى هذه الحياة وإلا أصبحت الميزات المترتبة على الأصل أو المركز معطلة ، وفضلا عن ذلك فإن النبي نفسه قال : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » . وهناك حديث آخر له الأثر نفسه وهو : «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم[٣] » . وأخيراً فإن النبي سمى قيس بن عاصم سيد أهل الوبر . وقد صرح المسلمون من الاجانب الذين يسمون فى الكتابات العربية أهل التسوية بأنهم يقبلون بكل سرور الأخذ بفروق الطبقة والمركز ولكنهم يرون أن مثل هذه الفروق يجب أن تقوم على المزايا الشخصية لا على أمور المولد أو الأصل العارضة « الكريم من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته » . وعلى هذا النحو فهموا الحديث الذى يتعلق بقيس بن عاصم والذى أشرنا إليه فيما سبق ، وهم كلفون بالاستشهاد بأبيات عامر بن الطفيل وهو من أشرف العرب فى الجاهلية :

---

(١) القرآن سورة رقم ٤٩ آية ١٣ ، قابل Weil, Leben, p. 372 & note والقرآن سورة ٤٩ آية ١٠

(٢) هذه العبارة غير موجودة فى البخارى

(٣) الميدانى : الأمثال العربية جـ ٢ ص ٢٨٦

وإني وإن كنت ابن سيد عامر   وفارسها المشهور فى كل مركب
فما سودتنى عامر عن وراثة   أبى الله أن اسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها واتقى   أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وكثيراً ما أدى سوء التفاهم هذا بين العرب والمسلمين الجدد إلى نشوب الفتن والثورات التى لا تنقطع ضد الحكومة فى العراق ، وقد كانت مصدر كثير من التعب للخلفاء الأمويين حتى أنهم اضطروا أن يرسلوا واليا نشطا هو الحجاج لإعادة النظام وتوطيد سلطانهم هناك[1] . وقد وفق هذا الوالى إلى إعادة النظام باتخاذ مثل تلك الاجراءات القاسية التى التجأ إليها فقط ؛ فقد قامت ثورة فى البصرة اشترك فيها عدد كبير من العلماء والمحاربون القدماء وظفر الحجاج بأغلب الثوار . وأراد أن يفرق طبقة الموالى إلى الأبد حتى لا يتحدوا أو يتآمروا ضد الحكومة مرة ثانية فأرسل إليهم وخطبهم قائلا لهم : « أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم » ثم أمر بتوزيعهم على القرى وبذلك حطم حزبهم تحطيما تاما ، ولكيلا يترك أحد من الموالى القرية التى أرسل إليها أمر بأن يوسم اسم القرية على يد المولى . وقد وضع هذا الأمر حداً لمحاولات المساواة بالطبقة الحاكمة التى كان ينطوى عليها الموالى والمسلمون الجدد ، ولكن روح التذمر ظلت موجودة ويحتمل أن تكون قد ساعدت إلى حد بعيد على القضاء على الدولة الأمويه . وقد وصل الحزب المضطهد كما هى العادة بتغير الأسرة الحاكمة إلى دفة الحكم وأصبح له أكبر النفوذ فى بلاط الخليفة ، إذ كان العباسيون يدينون بنجاحهم فى إبعاد الأمويين عن

---

(١) كان سبب هذه الثورة الأساسى أن المسلمين الجدد اضطروا إلى دفع الجزية — ابن الأثير ج ٤ ص ٣٧٤ وما يليها

العرش والحلول محلهم إلى الجنود الفرس بقيادة أبي مسلم ، ولذلك ارتفع الفرس والمسلمون الذين يرجعون إلى أصل فارسى إلى السلطة والنفوذ . ومع أن كثيرين منهم كانوا يتظاهرون بالإسلام إلا أنهم كانوا فى قرارة نفوسهم يتعلقون بدين آبائهم ، وقد كان للأثر الذى أحدثه هؤلاء الفرس وأعوانهم فى الخلافة أعظم الأهمية حتى أنه يعد من أهم مظاهر تاريخ الحضارة الإسلامية .

وقد امتزج الدم العربى بالدم الفارسى فى وقت متقدم ، حقيقة إن التشريع الإسلامى بذل كل ما فى وسعه ليحول دون الاتحاد التام بين العرب والأجانب ، وفى أول مجموعة من الأحكام القضائية الدينية وهى الموطأ نعثر على عبارة يحرم بمقتضاها الزواج من الأماء اليهوديات والمسيحيات ، بل إنه لم يكن فى استطاعة المسلم حتى أن يتسرى أمة فارسية [١] ولكن رغم هذه الأحكام وتحديا لها كانت للعرب علاقات مختلفة مع سكان العراق الفرس والآراميين وكانت هذه العلاقات تسير سيراً سريعاً .

وقد كان من بين سكان البصرة ، التى كانت فى القرن الأول للهجرة أهم مدينة فى تلك الولاية وكانت تجاور الصحراء العربية ، عدد كبير من الناس يتكلمون الفارسية كلغتهم الأصلية [٢] . وفى البصرة قامت أول مدرسة عربية وبينما كان نشاط مدرستى مكة والمدينة منحصراً فى القرآن والحديث تقدمت فى البصرة بالاضافة إلى ذلك الأبحاث النحوية واللغوية وظهرت فى تاريخها المتقدم بعض الشىء الاتجاهات العلمية والفلسفية وظهر فيها بوضوح أثر الاتصال بالأجانب . وهناك رواية يتناقلها الناس فى أغلب الاحيان وبمقتضاها كان

---

(١) ج ٣ ص ٢٣ طبعة القاهرة

(٢) الاغانى ج ١٧ ص ٥٦ وج ١٠ ص ٦ و Brockelmann, Arab. Litteratur, p. 98 et seq., خدابخش

تسرب الفساد إلى اللغة العربية فى البصرة هو السبب فى ضرورة وضع قواعد للنحو لإنقاذ اللغة العربية من الاضمحلال والفساد فى المستقبل . ولا حاجة بنا هنا إلى القول بأن هذه الرواية لا يعول عليها إطلاقا ولا أساس لها ،فالنحو العربى من وضع الأجانب من الآراميين والفرس ، وقد أوجدته الحاجة التى أحس بها هؤلاء الأجانب لتعلم كتابة اللغة العربية وقراءتها على وجه صحيح وعلى الأخص غير العرب الذين أرادوا أن يكرسوا حياتهم للدراسات العلمية. وواضعو النحو العربى هم الأجانب من الجنسيات الآرامية والفارسية الذين دخلوا فى الإسلام ، وعندما شاعت طريقة عرض الدراسات العلمية وكتابة الكتب اشتغل العلماء العرب أيضا بتلك الدراسات ، ولما كانت لغتهم العامية قد بعدت بعداً جوهرياً عن لغة القرآن فقد عنوا بعلم اللغة ورقوه بما فطر فيهم من شغف الساميين الأصيل بالدقة والحذق حتى أصبح نظاما غامضاً مبهماً وبقى وحدة قائماً إن صواباً وإن خطأ . على أنه لم يكن ينقص العرب وجود الرجال الأذكياء الذين سخروا من نظامهم ووجدوا فيه أخطاء . وقد خلف لنا الجاحظ الذى يميل إلى المسائل العقليـــة ملاحظة لطيفة عن محادثته مع الأخفش النحوى المشهور فى ذلك الوقت حيث يقول : « وقلت لأبى الحسن الأخفش أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الموضع الذى تدعونى إليه قلت حاجاتهم إلى فيهـا . وإنما كانت غايتى المنالة فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب

ذهبت »[١]. وهذا الأخفش الذى كان كثيراً ما يقص قصصاً بعيدة عن العلم هو الأخفش نفسه الذى يعتبر من أعظم الثقات فى علم النحو . ويبدو أن النظام الجديد كان فى حاجة إلى وقت حتى ينال رضاء العرب الأصليين الذين كان اهتمامهم به أقل ما يكون لأنهم كانوا مالكين لناصية القوانين اللغوية القائمة . ويخبرنا مؤلف كتاب الفهرست[٢] أن أبا عبيدة عالم فقه اللغة الكبير لم يكن يستطيع قراءة بيت واحد من الشعر دون أن يقع فى أخطاء فى الحركات ، وهذا يدل على أنه كان يجعل للقراءة العادية أهمية أكبر مما يجعل لقواعد النحو التى كانت تختلف عنها كل الاختلاف . وقد قضى ابن خلدون المفكر الفيلسوف بالقرار نفسه فيما يختص بعلم النحويين المزرى الذى انحط حتى أصبح إدعاءاً سخيفاً . وأنى أعتقد أنه لا يطلب منى أن أستمر فى الكلام على هذه النقطة أكثر من ذلك بعد أن أشرت إلى ما قاله[٣]. وقد كان عرب القرن الأول شجعانا ولكنهم كانوا برابرة أجلافا إذا ماوازنا بينهم وبين البيزنطيين والفرس الذين كانوا قد مرنوا على فنون السلم وكانت لهم حضارة قديمة جداً ، وقد ذهب العرب إلى مدارسهم وتعلموا عنهم بسرعة مدهشة فنون اللهو والترف والخلاعة . أما هؤلاء الذين تربعوا على عرش الخلافة فى دمشق ورأوا فجأة مقاليد حكومة عظيمة فى أيديهم فانهم عملوا على إحاطة أنفسهم بقدر من أبهة الملك يتفق مع العادات البدوية التى كانت لا تزال لها الغلبة فى الأيام الأولى . وقد أخذوا عن البلاط البيزنطى عادة فظيعة كانت غير معروفة للعرب حتى ذلك الوقت هى عادة استعمال الخصيان فى الخدمة داخل قصر الخليفة وبصفة

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ج ١ ص ٤٥ (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) — المترجم

(٢) ص٥٣ (ابن خلكان ج ٣ ص ٣٨٩ — خدابخش)

(٣) ابن خلدون — المقدمة ج ٣ ص ٣٥٥ وما يليها .

خاصة للحريم . ومع أنه يقال إن محمداً حرم عملية الخصى [١] فإن الجاحظ يقول عنها : « وكل خصاء فى الدنيا إنما أصله من قبل الروم ، ومن العجيب أنهم نصارى وهم يدعون الرأفة والرحمة ومن رقة القلب والكبد ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف ، وحسبك بالخصاء مثـلة وحسبك بصنيع الخاصى قسوة » .

وبعد فتح العرب للعراق وفارس مباشرة وصلتهم معلومات دقيقة عن بلاط ملوك الفرس وعن أبهتهم ، وقد أكثر الخلفاء الأمويون من تقليدهم . وعلى رغم تحريم القرآن أدخلت فى بلاط الخلفاء الأمويين عادة شرب الخمر فى زمن متقدم حقاً . وقد شربوا أولا عصير العنب المغلى (الطلاء) أو شرابا مأخوذاً عن اليونان سموه بالإسم اليونانى (رساطون) ، حتى إذا كانت الأيام الأخيرة وجدت تحفة فى خزانة بغداد هى عبارة عن فنجان بلورى واسع كان من عادة أم حكيم زوجة الخليفة هشـام أن تتناول فيه جرعة الصباح . وقد كان الشاربون فى بلاط بغداد يتزينون فى أيام الحفلات بأكاليل الزهور والورود على نحو ما كان يحدث تماما فى مجالس الشرب عند الرومان [٢] .

---

(١) الموطأ ج ٤ ص ١٦٤ (أنظر Finlay, Hist. of Greece, vol. II, pp. 302 note 2 – كان معاوية أول من استعمل الخصيان فى خدمته . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢ ـ خدابخش) .

(٢) كان من عادة الخلفاء الأمويين الأول أن يشربوا اللبن مخلوطا بالعسل أو عصير الرمان المحلى بالسكر (ماء الرمان مضروبا بالسكر الطبوزد) ـ كتاب السرور مخطوطة بالمكتبة الملكية بفينا ـ وبعد ذلك أصبح عصير العنب المغلى شائعا فى بلاط دمشق . وكان من عادة الناس فى العراق أن يشربوا نبيذ البلح المغلى ولكن بعد ذلك شربوا النبيذ الخالص ـ الأغانى ج ٢ ص ١٢٤ والفخرى ص ٢٥٧ (راجع تعليق ١٥ من تعليقات خدابخش ـ المترجم)

ومع ذلك فإن قوانين البلاط في العهد الأموى لم تكن قاسية جداً أو عديمة المرونة بأى حال ، فقد كان يسمح بالدخول لكل إنسان وكان الخليفة يسمح لذوى الحيثية من الرجال بالجلوس إما إلى جانبه على الديوان أو على وسائد أو كراسى خاصة ، وقد وصل إلينا تقرير لأحد خدم البلاط يقول فيه إنه كان ذات مساء فى بلاط الخليفة الوليد الثانى وكان القمر فى التربيع الثانى فأحضرت له صينية عليها فناجين وعند ما سأل عن نوع الشراب أجيب بأنه كان من عادات الفرس أن يتناولوا هذا الشراب واسمه هفتجه لمدة سبعة أسابيع فى وقت معين من السنة [١] . وكان الخلفاء أثناء الاحتفالات الليلية يقلدون العادة الفارسية القديمة ، وعندما يأخذ المغنون والعازفون فى الغناء والطرب يجلسون خلف ستارة كانت تعلق فى وسط الحجرة وتفصلهم عن خدمهم والعازفين لهم على أن هذه العادة لم يتبعها جميع الخلفاء [٢] .

وقد أتى الفرس إلى العرب بفن الغناء والموسيقى الذى لاقى عطفا كبيرا فى بلاط دمشق . والحقيقة أن أول المغنين رجالا ونساءاً وأحسنهم غناءاً كانوا إما من أصل فارسى أو تلاميذ لمعلمين من الفرس [٣] . وقد تجلى الترف فى بلاط الخلفاء وكان وجوده يخالف كل المخالفة البساطة التى كان عليها الخلفاء الأول الذين كانوا فى مظهرهم وصبغة حياتهم العامة لا يمتازون فى شىء عن

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ١٣٠ ـ أصدر الخليفة التقى عمر الثانى حالما اعتلى العرش أمراً بمنع شرب الخمر . (أنظر Goldziher, Muh. Studien, vol. II p. 74 ـ خدابخش)

(٢) قطب السرور ـ يجب أن أشير إلى أن هذا المؤلف القيم جدا جمع فى زمن الخليفة القائم على ما جاء به . أما فلو جل فيجعل وفاة المؤلف قبل ذلك بمائة سنة . (أنظر تعليق ١٠٦ من تعليقات خدابخش ـ المترجم)

(٣) الأغانى ج ١ ص ٩٨ و ج ١٦ ص ١٣

جمهور الناس [١] . وقد كان الخليفة الوليد الثانى يعلق حول عنقه سلاسل ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة يغيرها يوميا [٢] . وقد كتب والى أموى من ولاية بعيدة (خراسان) فى تقرير له بعثه إلى البلاط أن ضريبة الأرض فى الولاية كلها لم تكن تكفى لسد نفقات مطبخه [٣] . وحتى اللباس الفارسى استعمل تدريجيا ، فقد أمر القائد يزيد بن المهلب بعقاب أحد الأعراب لأنه تجاسر على الظهور بلباس فارسى خفيف [٤] ، وساروا إلى حد أبعد فى سبيل التحيز لكل ماهو فارسى والانتصار له على كل ما هو عربى ، ويمكن أن نقتبس للدلالة على هذا الأمرا لوصف التالى وهو لشاهد عيان : كان إسماعيل بن يسار من أصل فارسى وكان أجداده مثل غيرهم من الفرس الكثيرين قد التمسوا حماية قبيلة عربية أصلية بصفة موالى وحصلوا على تلك الحماية ومن ثم أصبحوا موالى قبيلة تيم ، ولكنه رغم هذا كان يتوقد حماسة لكل ما هو فارسى وكان فى بادىء الأمر مناصراً قويا لعبد الله بن الزبير خليفة مكة الثائر ، ثم بعد ذلك تغنى بمدائح الأمويين عندما هزموا عبد الله بن الزبير وقد دخل مرة على الخليفة هشام فاستقبله فى قلعته المسماة الرصافة وجلس على

---

(١) الفخرى ص ٨٩ - خدابخش

(٢) الأغانى ج ٦ ص ١٢٩

(٣) الأغانى ج ١٣ ص ٥٦

(٤) صار يزيد بن المهلب والياً على العراق سنة ٩٦ هـ (وازن هذا بسياسة الخلفاء العباسيين إذ أبدى المعتصم عداء ظاهرا للعرب ـ أنظر ابن الأثير ج ٦ ص ٣١٩ قابل تغرى بردى ج ١ ص ٦٤٢ و De Goeje, Fran. HistArab. p. 478., و Von Kremer, Culturgeschichte, vol. I, p. 335, ـ وفيما يختص بالمأمون أنظر Browne, Lit Hist. of persia, pp. 255,265 وفيما يختص بالمتوكل راجع Von Kremer, Culturgeschichte, vol. I, pp. 237-8 وقابل ابن خلدون — التاريخ العام ج ٣ ص ٢٧٥ وقابل Gold Ziher, Muh. Studien, vol, p. 151. وعن المهتدى راجع Von kremer, Cultur geschichte, vol .I, p. 238 — خدابخش) .

حافة بركة من الرخام وطلب إليه أن يقول شعراً فبدأ ينشد قصيدة افتخر فيها بأصله الفارسي وجاءت فيها هذه الأبيات :

إني وجدك ما عودي بذي خور ... عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ... ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب ... من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة ... جرد عتاق مساميح مطاعيم (١)
من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلق الماذي سابغة ... مشي الضراغمة الأسد اللهاميم
هناك إن تسألي تنبي بأن لنا ... جرثومة قهرت عز الجراثيم (٢)

وقد أصغى إليه الخليفة مدة طويلة دون أن ينبس ببنت شفة ولكنه لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك فقام من مقامه وصاح بخدمه وأمرهم أن أن يلقوا به في البركة وسرعان ما تلقفت أيدي الخدم الشاعر المسكين ورمت به في البركة حتى كاد يموت غرقاً ثم نفاه الخليفة من الشام فرجع مسرعاً إلى بلاد العرب حيث يستطيع أن يفكر في عظمة أجداده الفرس دون أن يزعجه أحد .

وبسقوط الأمويين واعتلاء العباسيين العرش بدأت فترة لقي فيها الفرس

---

(١) أنظر Lit. Hist. of Persia, p. 265 عن الرصافة راجع De Goeje, Frag. Hist. Arab. p. 81

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ (الحفاظ : الأنفة ، القرم : الأصيل : الكريم وجحاجح : مفردها جحجاح وهو السيد وبلج : مفردها أبلج وهو المشرق الوجه ، حلق : مفردها حلقة بتسكين اللام وهي الدروع ، سابغة : كاملة — المترجم)

وأنصارهم عطفاً أكثر مما كانوا يلاقونه فيما مضى [١] . وقد كان كثيرون من الفرس يوجدون فى البلاط وفى العاصمة وكانوا يتمتعون بقدر من عطف الخلفاء ويشغلون المناصب الهامة التى كانت مصدراً من مصادر الثروة والنفوذ لهم . ولا حاجة بنا هنا إلى الإشارة بصفة خاصة إلى أسرة البرامكة المشهورة التى سيطرت على الخلافة سيطرة لا حد لها إلى أن كانت خاتمتها المحزنة . وقد توصل الفرس إلى مراكز القيادة الحربية العليا حتى أنه فى عهد الخليفة الهادى أسندت إلى فارسى من أسرة قديمة من أسر الحكام كان قد أصبح مولى للخليفة المنصور عند اعتناقه الإسلام القيادة الحربية ومهمة جمع الضرائب فى ولاية خوزستان المهمة [٢] .

وقد أثار هذا الأمر فى الحقيقة غضب الحزب العربى القديم إلى حد بعيد فكان يظهر شعوره بكل وضوح فى أغلب الأحيان . وإنى أضع فى هذا المقام أمام عين القارىء هجاء موجها إلى الفرس زمن العباسيين الأول وهو يمثل

---

(١) عند مافتح الخليفة المأمون بغداد ثار ضده أحد الرؤساء العرب وعندما سئل عن السبب فى معارضته للعباسيين وحكمهم أجاب بقوله « لأنهم فضلوا الفرس على العرب » — ابن خلدون — التاريخ العام ج ٣ ص ٢٤١ (ويمكن أن نلاحظ هنا أن النزعة العنصرية العربية وهى غير الروح القبلية من الصعب أن تكون فى مبادئها أقدم من انتصار ذى قار (٦١١م) فحتى ذلك الوقت لم يفكر عربى فى أنه أفضـــل من الفارسى Robertson Smith, Kinship and Marriage, p. 189, note. ولا يوجد فى الأدب العربى القديم شىء يبين أن العرب كانوا ينظرون الى الأجانب نظرة احتقار (الفرس بصفة خاصة) Goldziher, Muh. Studien, I, p. 104 — خدابخش)

(٢) كان الخليفة المنصور قد عين أحد مواليه على سوس وجنديسابور — الأغانى ج ١٣ ص ٧٥ وكذلك ج ٢٠ ص ٨٢ (يقول السيوطى عن المنصور انه كان أول من عين الموالى فى المناصب الهامة وقدمهم على العرب — الكتاب ص ٢٢ — خدابخش)

مشاعر الحزب العربى تمثيلا صادقا [١] :

صنع من الله أنى كنت أعرفكم قبل اليسار وأنتم فى التبانين
فما مضت سنة حتى رأيتكمو تمشون فى القز والقوهى واللين
وفى المشاريق ما زالت نساؤكمو يصحن تحت الدوالى بالوراشين
فصرن يرفلن فى وشى العراق وفى طوائف الخز من دكن وطارون
أنسين قطع الحلانى من معادنها وحملهن كشوثاً فى الشقابين
حتى إذا أيسروا قالوا وقد كذبوا نحن الشهاريج أولاد الدهاقين
لوسيل أوضعهم قدراً وأنذلهم لقال من نخره إنى ابن شوبين
وقال أقطعنى كسرى وورثنى فمن يفاخرنى أم من يناوينى
فقل لهمو وهم أهل لتربية شر الخليقة يا بخر العثمانين
ما الناس إلا نزار فى أرومتها وهاشم سرجها الشم العرانين
والحى من سلفى قحطان انهمو يزرون بالنبط اللكن الملاعين
فما على ظهرها خلق له حسب مما يناسب كسرى غير حمدون
قرم عليه شهنشاهية ونبا ينبيك عن كسروى المجد ميمون
وإن شككت فنى الأيوان صورته فانظر إلى حسب باد ومخزون [٢]

(١) الخليفة الهادى (يجب أن نلاحظ أن هذا الهجاء ليس موجهاً ضد الفرس بل ضد النبطيين الذين كانوا يدعون كذبا أنهم فرس . ولو أن فون كريمر ترجم البيتين رقمى ١٠و١١ لتبين له هذا الأمر — خدابخش .)

(٢) راجع الملاحق فى النسخة الألمانية وكتاب الأغانى ج ١٢ ص ١٧٦ — المترجم
(التبانين : مفردها التبان وهوسراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة يكون للملاحين والمصارعين معرب تنبان بالفارسية .
القوهى : ثياب بيض نسجت فى قوهستان أومايشبهها ، الوراشين مفردها ورشان وهو طائر
طارون : الطرن الخز والطاروني ضرب من الخز
=

ومن المستحيل أن تهاجم الكبرياء الفارسية والغرور الفارسى مهاجمة أعنف وأقذع مما فى هذا الشعر ومما يؤسف له أن الجزء الأكبر منه لا يمكن ترجمته لما يحويه من غريب التعبيرات والاستعارات وإليك بعض أبيات منه :

أما تراهم وقد حطوا برادعهم ... عن أتنهم واستبدوا بالبراذين
وأفرجوا عن مشارات البقول إلى ... دور الملوك وأبواب السلاطين
تغلى على العرب من غيظ مراجلهم ... عداوة لرسول الله فى الدين

ولكن مثل هذه الانفعالات والسخط الذى بدا من العرب حين رأوا سلطانهم يضمحل ويتلاشى لم تغير مجرى الحوادث الطبيعى فازداد النفوذ الفارسى فى بلاط الخلفاء وبلغ ذروته فى عهد الهادى وهارون والمأمون ، وقد كان معظم وزراء هذا الأخير من الفرس أو من نسلهم [١] . وقد شاع فى بغداد استعمال الأزياء الفارسية وصاروا يحتفلون بأعياد الفرس القديمة وهى النوروز والمهرجان والرام [٢] . وأصبح الزى الفارسى لباس البلاط الرسمى

= الكشوث : شىء يلتف على الشوك والشجر ولا عرق له فى الأرض يشبه الليف المكى لاورق له ولا زهر صغار بيض فيه مرارة وعفوصة وهو مثل فى الخسة .

الشقابين : مفردها شقبان وهو طائر وعند العامة ذيل العباءة يثنيها لابسها إلى خلف ظهره ويحمل فيها الحشيش أو غيره

البرذون : الفرس غير الأصيل ، أفرجوا : انكشفوا : أبعدوا .

عثانين : مفردها عثنون وهى اللحية   البخر : النتن

عرنين الأنف تحت مجتمع الحاجبين وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشمم ويطلق على السيد الشريف وجمعه عرانين يقال هم شم العرانين — المترجم)

(١) عين المأمون ثلاثة من الفرس مديرين لبيت الحكمة الذى أنشأه وكان أحدهم معروفا بأنه منافس للعرب وعدولهم — الفهرست ص ١٢٠ (راجع Z. D. M.G., p. 624, 1859 خدابخش)

(٢) (النوروز — راجع ابن خلكان ج ١ ص ٣٤٠ هامش ١٣ وكذلك ج ٢ ص ٥٣ وج ١ ص ٢٠٣ و Browne, p. 259 — خدابخش) الرام : هو اليوم الحادى والعشرين من الشهر واسم الملك المهيمن على ذلك اليوم

Johnson's Persian — Arabic — EnG. Dictionary — المترجم .

كما أن الخليفة العباسى الثانى (فى سنة ١٥٣ هـ = ٧٧٠ م) جعل أغطية الرأس الفارسية الطويلة السوداء المخروطية [قلنسوة جمعها قلانس] الشبيهة بقبعتنا العالية الأوروبية لباسا رسمياً . وكانوا فى البلاط يقلدون عادات ملوك آل ساسان فأدخلوا الثياب المزركشة بالنقوش المذهبة وكان منحها من حق الخليفة وحده [1] . ويبدو لنا المتوكل فى قطعة نقدية له وقد لبس فعلا لباسا فارسيا حقيقيا [2] . ومع أن الإسلام فى أيامه الأولى لم يكن متشدداً بأى حال فى نظرته إلى الصور الآدمية فإنه يجب علينا حين نجد مثل هذا الدليل أن نتأكد تمام التأكد بأن أمور التعصب الإسلامية القديمة قد زالت تماماً من بلاط الخليفة وحلت محلها مثيلاتها من التقاليد الشائعة عند الساسانيين . وقد صاحبت نزعة الميل إلى الاقتداء بكل ما هو فارسى ومتابعته فى البلاط وفى الدوائر المسئولة ظواهر واضحة لتطور كبير شامل فى المسائل الدينية . فكان فى العراق عدد غير قليل من المسلمين الذين اعتنقوا آراء دينية بعيدة كل البعد عن الإسلام إما موروثة عن أجدادهم أو نتيجة لاتصالهم بالأجانب . وفى عهد العباسيين ظهرت مثل هذه الآراء محوطة بإطار من الفخامة أعظم . وكانت البصرة أكبر مركز فى دولة الخلفاء يومئذ لا تاوى داخل أسوارها عدداً كبيراً من السكان الأجانب غير العرب الذين بعضهم من الفرس فحسب بل إن المؤثرات الهندية كانت تعمل عملها أيضاً عن طريق التبادل التجارى . وقد تطورت فى هذه المدينة لأول مرة نظرية حرية الإرادة التى نشأت أولا

---

(١) ابن خلدون — المقدمة جـ٢ فصل ٣٨ دار الطراز — وعلى الأعلام أيضا كان يوجد اسم الخليفة الذى يحكم مطرزا بالذهب

(راجع تعليق ١٧ من تعليقات خدابخش — المترجم)

(٢) قابل : Gesch. d. herrsch. Ideen, p. 48.

فى دمشق وأصبحت مدرسة دينية عقلية لعبت دوراً هاما فيما بعد باسم طائفة المعتزلة . وفى هذه المدينة أيضا قام أحرار الفكر الأول الذين كانت لديهم الشجاعة الكافية للخروج على الإسلام كثيراً أو قليلا ، وفيها كان بدء ظهور نزعة عدم المبالاة بالدين التى انتشرت فيما بعد حتى وصلت بلاط الخليفة نفسه

وقد تقابلت هنا أيضا شرذمة صغيرة من رجال الأدب والعلم حوالى منتصف القرن الثانى للهجرة ، ولدينا معلومات عن بعض هؤلاء الرجال . وأول من يذكر منهم بشار بن برد الذى كان شاعراً مشهوراً وكان من أسرة فارسية قديمة تدعى أنها من أصل ملكى ، وقد أحضر أحد القواد المظفرين أباه رقيقا إلى العراق حيث ولد بشار ، وقد أعتقته سيدته أخيرا وهى امرأة عربية شريفة ، ومنذ ذلك الحين صار مولى لها ، وقد عاش فى البصرة ولكنه قام بعدة رحلات إلى بغداد فى بلاط الخليفة ، وقد ظهرت براعته الشعرية فى وقت مبكر وكان أعمى منذ مولده وسرعان ما ذاعت شهرته . وبجانب بشار عاش فى البصرة جماعة من الناس واتصلوا بعضهم ببعض وتناولوا بالبحث المسائل الدينية وانزلقوا إلى الإلحاد وكونوا جمعية إلحادية جدلية صغيرة . وكانوا يجتمعون بانتظام فى بيت أحد الأعضاء وكان ضمن هذه المجموعة بشار وواصل بن عطاء الذى أسس طائفة المعتزلة التى سبقت الاشارة إليها وجرير بن حزم وعمرو بن عبيد واثنان آخران لم يذكر اسمهما ومن هذه المجموعة الصغيرة نشأت حركات فكرية مختلفة فواصل أصبح كما ذكرنا مؤسس طائفة المعتزلة وانضم إليه عمرو بن عبيد ومال جرير إلى رأى البوذية (السمنية) أما الاثنان الآخران اللذان لم يذكر إسمهما فقد تابا وعادا الى حظيرة الدين الحنيف . وبشار وحده هو الذى لم يستطع أن يتخذ له

وجهة معينة وظل ملحدا حتى آخر حياته ، ويقال إنه اعتنق نظرية الرجعة ، وكانت له ميول قوية نحو الآراء الفارسية القديمة ، ويوجد فى أشعاره هذا البيت الذى يؤيد عبادة النار طبقاً لدين زردشت

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار(١)

وقد أظهر عطفه على الفرس بصراحة تامة ، على أنه ترك حرا يبدى حماسه للفرس دون أن يقلقه أحد طالما كان يقرض المدائح فى الخليفة الذى يحكم (المهدى) ولكنه عند ما ترك لسانه البذىء من عقاله وألف قصيدة فى هجاء الوزير يعقوب بن داود الذى كان عظيم النفوذ فى ذلك الوقت وتعرض فيها للخليفة نفسه حكم عليه بالموت وفيما يلى الأسطر الخطيرة التى كلفته حياته :

بنى أميــــة هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود(٢)

ويعتبر بشار نموذجا صادقا لطائفة كبيرة من رجال ذلك الزمن الذين اعتنقوا الاسلام فى الظاهر ولكنهم كانوا فى الحقيقة غير مخلصين له كثيراً أو قليلا . وقد أطلق على هؤلاء الناس اسم الزنادقة وهى كلمة كانت تدل على معانى مختلفة فى الأزمنة المتباينة . ففى بادىء الأمر كانت تطلق على الذين اعتنقوا الآراء الفارسية وأخيراً كانت تدل على اتباع الديانة المانوية . ومع ذلك فقد اتسع مدلولها شيئاً فشيئاً حتى أصبحت مرادفة لكلمة ملحد أى لا يعتقد بالدين . على أن أمثال هؤلاء كانوا يسمون زنادقة فى زمن أكثر

---

(١) (ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٤–٧ و Brockelmann, Gesch d. Arab' Lit. vol. I, pp. 73–4 — قتل بشار سنة ٧٨٣/٤م لألحاده ـ الأغانى ج ٣ ص٢١ و Browne, p. 267, Goldziher, Muh. Studien, I, p. 162. ـ خدابخش)

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٧١ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦

تقدما ويقال إن مربى الخليفة الأموى الوليد بن يزيد كان زنديقا وأنه غرس فيه حب الخمر وعدم المبالاة بالدين[١] وقد كان العباسيون[٢] أحياناً يعاملون الزنادقة معاملة قاسية جدا ، على أنه لايزال يذكر عن الخليفة العباسى الأول أنه كان يصاحبه فى الشرب زنديق مشهور اسمه عجرد . وقد ولد هذا الرجل فى الكوفة وصار مولى لأسرة عربية ، ويذكر أحد معاصريه ما يأتى : « لقد كنت أظن دائما أن عجرد سمى زنديق بسبب التهور فى أشعاره ولكنى حبست مرة فى سجن الزنادقة فى الكوفة وقابلت عجرد فيه ولاحظت أنه كان يشترك معهم فى صلاتهم ، وقد كانوا يتغنون فى صلاتهم بقصيدة من وضعه تتألف من مقطوعات كل مقطوعة من بيتين»[٣] وواضح من هذا أن وجود الزنادقة فى الكوفة فى ذلك الوقت لم يكن نادرا وأنه كان لهم مجتمع دينى خاص بهم . وقد كانوا يعتنقون مذهب الثنوية الدينى ويعبدون الهين ويتبعون تعاليم مانى وكان الناس يذكرون عنهم أنهم يعبدون رأسا انسانية[٤] وهذه الأشياء كافية فى نظرنا جداً لاعتبار الزنادقة الأول هم المانوية ولكن لدينا دليلا أوضح على هذا الرأى فاننا نجد فى كلام واحد من أقدم الكتاب العرب وصلتنا مؤلفاته عبارة هامة جدا يتكلم فيها على كتب الزنادقة الدينية ويذكر محتوياتها وكل ما يذكره عنهم يتفق كل الاتفاق مع ما نعرفه عن مبادىء المانوية الدينية وأوامرهم من المصادر الأخرى . وهذه العبارة التى بقيت

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٧٨ (راجع تعليق ١٨ من تعليقات خدابخش-المترجم)

(٢) راجع تعليق ١٩ من تعليقات خدابخش — المترجم

(٣) الأغانى ج ١٢ ص ٧٤

(٤) الأغانى ج ١٣ ص ٧٤ ، ٧٦ — عن عبادة الرأس الانسانية يقرأ كتاب Chwolshon. vol .I.p.464 و vol. II p.19.

مجهولة حتى الآن هى كما يلى[١] : « قال ابراهيم بن السندى مرة وددت أن الزنادقه لو يكونوا (كذا) حرصى على المقالات بالورق النقى الأبيض وعلى تحلل الحبر الأسود المشرق البراق وعلى استجادة الخط والارغاب لمن يخط فانى لم أر كورق كتبهم ورقا ولا كالخطوط التى فيها خطا ، وإذا غرمت مالا كثيراً مع حبى للمال وبغض الغرم كان سخاء النفس بالانفاق على الكتب دليلا على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سكر الآفات . قلت لابراهيم أن انفاق الزنادقة على تحصيل الكتب كأنفاق النصارى على البيع ، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس وسنن نبيين وتبيين ، أو لو كانت كتبهم كتبا تعرف الناس أبواب الصناعات أو سبل التكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب، وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مأثم ، لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان والرغبة فى التبيين ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة فانما انفاقهم فى ذلك كانفاق المجوس على بيت النار وكانفاق النصارى على صلبان الذهب أو كانفاق الهند على سدنة البددة ولو كانوا أرادوا العلم لكان العلم لهم معرضا وكتب الحكمة لهم مبذولة والطرق إليها سهلة معروفة ، فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب دياناتهم كما يزخرف النصارى بيوت عبادتهم ، ولو كان هذا المعنى مستحسنا عند المسلمين أو كانوا يرون أن ذلك داعية إلى العبادة وباعثة على الخشوع لبلغوا فى ذلك بعفوهم مالا تبلغه النصارى بغاية الجهد ، وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ، ومن رآه فقد علم

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان جـ ١ ص ٢٨ — ٣٠ (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) المترجم

أن أحدا لا يرومه وأن الروم لا تسخو أنفسهم به ، فلما قام عمر بن عبد العزيز جلله بالجلال وغطاه بالكرابيس وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق ، وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع وأن البال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه ، والذى يدل على ما قلنا أنه ليس فى كتبهم مثل سائر ولا خبر ظريف ولا صنعة آدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة ولا تعليم فلاحة ولا تدبر حرب ولا منازعة عن دين ولا مفاضلة عن نحلة وجل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت وذكر الصنديد والتهويل بعمود الصبح والأخبار عن شقلون وعن الهامة وهدروعى وخرافة وسخرية وتكذب لا ترى فيه موعظة حسنة ولا حديثا مونقا ولا تدبير معاش ولا سياسة عاملة ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الاطاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين ، والناس لا يحبون إلا دنيا أودينا ، فأما الدنيا فاقامة سوقها واستمالة الخاصة أن يصور فى صورة مغلطة ويموه تمويه الدنيا والبهرج والدرهم الذى لا يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقة القليل ، فليس انفاقهم عليها من حيث ظننت ، وكل دين يكون أظهر فسادا أحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليط فيه إلى أكثر ، وقد علمنا أن النصرانية ، أشد انتشاراً من اليهودية تعبداً فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم فى توكيده واحتفالهم فى إظهار تعليمه . »

ومن هذه العبارة التى ذكرها العالم العربى نستنتج على وجه اليقين أن

كتابات الزنادقة التى يتكلم عنها ليست إلا كتابات المانوية الدينية والأدلة على ذلك ثابتة إلى أبعد الحدود ، فهو يقرر أن من الصفات الخاصة بكتابات المانوية الزخرفة الفخمة والتفنن ، ويقول أوجستن عند كلامه على كتابات المانوية « ما أكثر كتاباتكم وما أعظمها وأنفسها »[١] ، ولا يزال كتاب مانى (انجيله) مضرب الأمثال بين الفرس لفخامته وزخرفته ، على أن الأمر الحاسم إلى درجة أبعد هو أن ما قاله الجاحظ عن محتويات كتب الزنادقة الدينية يتفق كل الاتفاق مع ما يذكره لنا صاحب الفهرست الذى عاش بعد الجاحظ بمائة سنة عن محتويات كتاب المانوية الدينى وبخاصة الجزء منه الذى يتناول الكلام على خلق الإنسان وتاريخه الأصلى ، فهنا نجد أيضا جميع مصطلحات تعاليم مانى الخاصة مثل صنديد (عامر الصبح) الخ الخ . ولا شك أن كتب المانوية الأصلية كانت فى متناول الجاحظ ومن المحتمل كل الاحتمال أنه كانت لديه ترجمة عربية منها ، ومما يدل دلالة واضحة على أن تعاليم المانوية كانت معروفة فى ذلك الوقت معرفة جيدة جدا وكانت محلا للعناية والتقدير أن كاتبين مشهورين مثل الجاحظ وابن النديم (صاحب الفهرست) ذكراها بصراحة وأن الأول يوازن بين دين المانوية وبين المسيحية واليهودية . وعلى أى حال فان ركون المانوية إلى زخرفة كتبهم وتجميلها يدل على أنهم لم يكونوا فقراء ولم يكن هناك من الأسباب ما يدعوهم إلى التخفى . ويبدو لنا أن الديانة المانوية كانت تشمل أمورا كثيرة جذبت الناس إليها ، فهى بإدخالها الأفكار المسيحية والمجوسية فى نظامها الدينى استمالت بقوة كلا من المسيحين والمجوس كما أن شكل العبادة الظاهرى بها كان قريبا من الإسلام إلى حد عجيب فقد كان واجبا

(١) Flugel, Mani p 385.

على المانوية أن يؤدوا كالمسلمين عددا معينا من الصلوات كل يوم (٤ أو ٧) وكانت كل صلاة تتألف من عدد من السجدات التى تشبه السجدات التى أدخلها محمد بعد ذلك . وقد كانت توجد عند المانوية قبل محمد مسألة التطهر بالغسل قبل الصلاة وصيام ثلاثين يوما أيضا ، وليس بعيداً أن يكون نبى مكة (ﷺ) قد أخذ عن المانوية بعض طقوسهم الدينية . وربما بدا المانوية خطرين فى أعين حكام الاسلام فى أغلب الأحيان ، فقد اتخذوا ضدهم أساليب قاسية المرة بعد المرة ، وكان هذا ما فعله الخليفة الهادى والمهدى [١] ، وفى عهد هارون الرشيد عينوا موظفا خاصا للكشف عن الزنادقة ومعاقبتهم [٢] ، وكان يحقق مع كل من يشك فى أنه زنديق تحقيقا شديدا دقيقا ، وقد أعدم الشاعر صالح ابن عبد القدوس بأمر الخليفة وكان يعتنق آراء المانوية مع أنه كان عربيا أصيلا ولم يكن فارسيا مستعربا . ونحن نعلم علم اليقين أن الشاعر مطيع بن إياس الذى عاش فى عهد الخليفة المهدى لاقى مثل هذا المصير ، وقد اعترفت ابنته عندما حقق معها الخليفة هارون الرشيد بأنها تعلمت نظريات المانوية وقرأت كتابهم الدينى [٣] » ومن هذا يتضح أن المانوية كسبت أتباعا حتى بين المسلمين من العرب الخلص ، ولا شك فى أنها كانت شائعة جدا بين المسلمين من غير العرب ويؤكد مؤلف ثقة قديم جدا [٤] أن أسرة البرامكة المشهورة

---

(١) الذهبي : كتاب العبر وابن الأثير ج ٦ ص ٤١ و٣٩ و٥٣ وتوجد العبارات المهمة الخاصة بهذا الموضوع فى ص ٧٣ من كتاب ابن الأثير ج ٧ .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ١٢٤ (٣) الأغانى ج ١٢ ص ٨٩

(٤) مؤلف الفهرست [كان الوضوء مستعملا فى بلاد العرب الجنوبية الوثنية انظر
D.H. miiller hungar Ishe alterthuner im k.k. Museum Wien
أنا مدين بهذه الملحوظة للاستاذ مرجليوث — خدابخش]

ماعدا أحد أفرادها كانت تعتنق المانوية حقيقة[١]، بل إن المؤلف نفسه يذكر أن الخليفة المأمون نفسه زنديق ، على أن هذا الأمر يجب أن يؤخذ على أنه لم يكن متدينا كل التدين ويؤيد صاحب الفهرست فى هذا آخرون ، ويبدو بوضوح عدم ميل المأمون إلى اقتفاء آثار أبيه فيما يختص بالأساليب العدائية ضد المانوية من الحادثة التالية : فقد أرسل المأمون لرئيس المانوية فى الرى واسمه يزدان بخت يدعوه للحضور لمناظرة العلماء المسلمين ، ويقال إن يزدان بخت غلب فى المناظرة وأن المأمون دعاه عندئذ للدخول فى الاسلام ، ومع أنه رفض ان يخرج عن دينه فإن المأمون شمله برعايته التامة[٢]. ومن الواضح جدا أن التيار فى عهد المأمون كان فى غير مصلحة الإسلام الصحيح وأن الخليفة الذى كان يعطف على الفرس لم يكن متعصبا للدين بأى حال. وقدكان اعتناق الآراء الخارجة على الدين هو الأسلوب الشائع فى ذلك الوقت ، وقد أرسل شاعر عاش فى أيام المهدى ولحق أيام المأمون لأحد أصدقائه واسمه زياد وكان قد تظاهر بالزندقة التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت علامة على الثقافة والتمدن الأبيات الآتية :

يا ابن زياد يا أبا جعفر — أظهرت دينا غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى — باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما — أردت أن توسم بالظرف[٣]

---

(١) هذه الأسرة المشهورة التى كان لها المقام الأول فى دولة الخلفاء زمنا طويلا كانت من أصل فارسى أتت من بلخ حيث كان جدهم رئيس معبد بوذا فى نوبهار Naubahar .

(٢) الفهرست ص ٣٣٨ . تفسر كثير من الحوادث إذا علمنا أن أم المأمون فارسية انظر عبارة وردت فى كتاب لمؤلف قديم مطلع De Goeje Frag. hist, arab, vol. I p. 350

(٣) الأغانى ج ١٧ ص ١٥ المترجم

ولكن المانوية كسبت فيما بعد أتباعا فى بلاط الخليفة كما يدل على ذلك أمر أفشين محسوب المعتصم الكبير[١]، إذ يتضح لنا جيداً من الوصف الذى بلغنا عن مصرعه أنه كان يعتنق مبادىء مانى التى كانت منتشرة انتشاراً كبيرا فى شمال فارس وفى الأراضى الواقعة على سيحون التى كان منها أفشين إذ أنه كان من ولاية أسروشنة . وليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الأمور تغيرت فى بلاط الخليفة بموت الأفشين ، فإنه حتى بعد موته ظل المحاسيب الأتراك والفرس ومعظمهم ممن كانوا عبيداً فى الأصل وأصبحوا أحرارا أخيرا فقط يتولون أعلى مناصب الدولة ويحركون سياسة بلاط بغداد ويشرفون عليها . والحقيقة أن مظاهرهم الحسنة هى وحدها التى كانت تبلغ بهم إلى مراكز الامتياز والأهمية فى أغلب الأحيان لأن عادة عشق الأولاد القبيحة التى كان العربى فى بادىء الأمر غريبا عنها بدأت على الأرجح تظهر ظهوراً فاضحاً فى وقت واحد مع ازدياد النفوذ الفارسى ومن وجهة نظر مؤرخ الحضارة لايمكن إهمال هذا الجانب القبيح من صورة الأخلاق الشرقية، ولكن ليس هنا مجال البحث بشكل أدق لأن مهمتنا تتعلق قبل كل شىء بالآثار التى خلفتها الأفكار الدينية الأجنبية فى الاسلام ، ونحن نجد فى مؤلفات الشعراء المعاصرين أعظم دليل وأثمن شهادة عن هذا الانحلال الفظيع الذى كان يمزج الترف الشرقى بالوقاحة الدنيئة مزجا تاما والذى لابد أنه كان

---

(١) اقرأ عن سقوط الأفشين Weil, Gesch. d. Chalifen vol. II p. 326 وابن خلدون — التاريخ العام ج ٣ ص ٢٦١ طبعة القاهرة وابن الأثير ج ٦ ص ٣٦٢ [يذكر سبط بن الجوزى ان اسم الأفشين الحقيقى حيدر بن كاوس وأن أحكام اسروشنة وهى ولاية فيما وراء النهر كانوا يلقبون بلقب أفشين كما كان ملك فارس يلقب بكسرى وملك الروم بقيصر — ابن خلكان ج ١ ص ٧٢ هامش ٩ خدابخش]

شائعا فى الطبقة العليـا فى بغداد . وإن أبا نواس الداعر المحظوظ والهجاء الجسور الذى لا يوجد فى نظره شىء له قدسية أو حرمة هو بصفة خاصة الذى يكشف لنا عن فساد هذه الفترة الخلق ،حين تدفقت ثروة آسيا وإفريقية، وليست هى وحدها فحسب ، بل وعند ما بدت أيضـا رذائل ذلك الجزء من العالم بكل وقاحة فى بلاط الخليفة . وفى ذلك الوقت لم يكن فى الامكان التحدث عن المشاعر الدينية الحقيقية ، وكان الناس يهزأون بكل شىء — وبشكل وقح حقا — طالما كانوا لا يثيرون الشك فى تبعيتهم لطائفة غير إسلامية ، وكان فى استطاعتهم أن يشكوا فى الاسلام ولـكن يجب عليهم ألا يعتنقوا دينا آخر . وهذا أبو نواس ينشد بدون أى اكتراث[١] :

رأيت المسجد الجامع قفاعـــة إبليس
بنـاه الله والطالـع نجم غـير منحوس
به حلت ظباء الأنس فى أفيـح مانوس
اذا راحوا على العشا فأهل الضر والبوس
فكم فى الصحن من قلب كليم الجرح مخلوس[٢]

وقد فقد الأسلام الأصلى على ما نرى نزعته الإستقلالية باتصاله بالنظم الدينية الأجنبية . وهو لم يصبح أكثر اعتدالا بل إن الطبقات الحاكمة هى التى أصبحت أكثر تسامحا ، وقد اختفت نزعة العرب القديمة الخاصة بكراهية كل ما هو أجنبي بسبب تغلب النفوذ الفـارسى ، ووصلت إلى العرب كنوز

(١) ديوان أبى نواس طبعة القاهرة ص ٢٤٩ . المترجم

(٢) ابن خلـكان ج ١ ص ٣٩١ . عن أبى أيوب المريانى وعلاقاته بالسفاح الفخرى ص ٢٠٧ . عن الربيع بن يونس وزير المنصور . الفخرى ص ٢١٠ . وتوجد قصة عجيبة مذكورة فى De Goeje Frag. hist arab p. 104 خدابخش مخلوس : مسلوب

الأدب اليونانى عن طريق السوريين والمسيحيين ، ونشأت بغتة بين جميع رجال النشاط والفكر نزعة قوية لدراسة «الأوائل» أى كتاب اليونان ، ويقول مؤلف عاش فى زمن المأمون (١) « ولولا ما أودعت لنا الأوائل فى كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة ، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأى عقيما والخاطر فاسدا ، ولكل الحد ، وتبلد العقل . وأكثر من كتبهم نفعا وأشرف منها خطراً وأحسن موقعا كتب الله تعالى التى فيها الهدى والرحمة والأخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة » ومن دراسة « الأوائل » التى أتت بكثير من الأفكار الجديدة والآراء إلى أفق المسلمين الفكرى نشأت المدارس الفلسفية العربية التى سرعان ما اتجهت اتجاها صوفيا خفيا بينما أخذ الإسلام السنى يعمل شيئا فشيئا على إقامة نظام كلامى ثابت مستقل . وقد قامت دراسات العرب الفلسفية قبل كل شىء على أرسطو ، وعن طريق العرب توصلت أوربا فى العصور الوسطى إلى كتابات الفيلسوف الاستاجيرى العظيم (٢). كما هو معروف . ورغم هذا فإن الفلسفة الأفلاطونية وعلى الأخص فى ثوبها الأفلاطونى الحديث كسبت أيضا أتباعا من العرب ، ومنها قامت بينهم مدرسة فلسفية خاصة أهملت للأسف حتى

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان (كتاب الحيوان جـ ١ ص ٤٢ — ٤٣ — طبعة مصر سنة ١٣٢٣ هـ . المترجم)

(٢) هو أرسطو وهو هنا ينسب إلى مسقط رأسه . المترجم

الآن ، ولكن لا يمكن إهمالها هنا لأنها بإدخالها أفكارا دينية أجنبية فى نظامها ساهمت إلى حد بعيد فى تكوين آخر شكل اتخذه الإسلام بتأثير مذهب التصوف .

وتعرف هذه المدرسة الأفلاطونية بين الشرقيين باسم **الأشراقية**[١] ، وأشهر أبطالها وأكثرهم تحمسا والذى وصل الينا جزء من مؤلفاته هو السهروردى ، وقد نسج من مبادىء الأفلاطونية الحديثة مستعينا بنظرية النور أو التألق وهى من مبادىء المجوسية أو على ما يحتمل من مبادىء المانوية فكرة عالمية مبتكرة خيالية ، وقد انتشرت تعاليمه التى نسيت نسيانا تاما فى الجهات الأسيوية القريبة انتشارا عظيما فى الهند حيث كان يعتنقها منذ قرنين عدد كبير من الأتباع ويعتبرون النور صورة الخلق الأول ويقسمونه إلى نور صافى تام ليس به أقل ظل أو ظلمة ونور غير صافى يشوبه الظلام من بعض نواحيه .

ونحن لا نربط بدون مبرر بين اسم السهروردى وبين آخر تغيير كبير اعترى الإسلام نتيجة لتأثيرات الأفكار الدينية الأجنبية وظهر بشكل **التصوف** .

ونحن إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى الغموض الذى كان يحيط بنشأة التصوف حتى وقت متأخر جداً لوجدنا أن ايراد بعض الملاحظات عن هذا الموضوع لا يخلو من فائدة . والذى أريد أن أبينه هو أن التصوف الحقيقى كما يبدو فى نظم الدراويش المختلفة التى أميز تمييزاً شديداً بينها وبين حركة التعبد البسيطة التى

---

(١) قابل Gesch. der herrsch. Ideen, Dabistan p.202 وكتاب الحيوان ص ٩٥ وما يليها ولا شك فى أن فكرة النور الصافى وغير الصافى من أصل مانوى (انظر ابن خلكان جـ٤ ص ١٥٣ وما يليها و Dugat, hist. desphilosophes p. 189. ونلدكه عن أصل كلمة صوفى واستعمالها القديم Z.D.M.G.XLVIII, P.45 خدابخش)

ظهرت فى المسيحية الأولى بل وفى الاسلام الأول ، يرجع أصله إلى مدرسة الفلسفة الهندية المعروفة باسم مدرسة الفدنته (Vedanta) بصفة خاصة[١] ، والدليل الذى أقدمه يقوم على البحث والتقصى ويكشف عن حلقة جديدة فى سلسلة العوامل التى توفق وتوجد الانسجام بين نظم الثقافة الشرقية المختلفة المتنافرة فى الظاهر . ولكى أكون دقيقا كل الدقة سأتبع الطريق الذى سلكته فى دراساتى بدون تغيير ، فإنه بنمو نزعات الافتتان والهيام نشأت فى الاسلام طوائف عديدة من الدراويش ، وكان لكل طائفة من هؤلاء الدراويش قواعدها السرية وأساليبها الخاصة بها التى توضح للمبتدئين فقط والتى كانت تتعلق بإيجاد الهيام الصوفى بصفة خاصة ، ففى طائفة من طوائف الدراويش كان يصحب التفكير المستمر فى حجرة منفردة مظلمة صوم شديد وتعذيب ، وفى طائفة أخرى كانت تنشد الأوراد حتى تغيب الحواس نتيجة للاجهاد وتظهر الأشباح ، وفى طائفة ثالثة كانت تمتزج بالأصوات الموسيقية وإنشاد التراتيل الرقصات وحركات الجسم . على أن الموجود من المعلومات المحققة عن هذه القواعد السرية الخاصة بالطوائف المختلفة قليل جدا ، والملاحظ فى جميع الأدب الصوفى الذى تجمع بدرجة كبيرة حول هذه القواعد والأساليب السرية هو التكتم الظاهر .

ومن حسن حظى أنى توصلت إلى مخطوط يشمل قواعد طائفة النقشبندية ويبين بدقة كيف يكون القيام بالتمرين الروحى طبقا لقواعد هذه الطائفة وتأديته بقصد إيجاد الهيام فى الدرويش وتمكينه بذلك من الانهماك فى التفكير فى العالم الروحى .

---

(١) هم أتباع الفيدا أو الويدا كتاب الهنود . راجع تعليق ١٥ من تعليقات المترجم

وإنى ذاكر هنا هذه العبارة التى موضوعها الذكر وهو الورد العام الذى يعتقد الدراويش النقشبندية أنهم يبلغون به أعظم هزات وجفوات الهيام ، فمحل القلب المضغة تحت ثدى اليسار ، والروح مثلها فى اليمين ، والسر فى يسار الصدر ، والخفى فى يمينه[١] ، والأخفى فى وسطه[٢] ، والنفس فى الدماغ والعناصر تندرج فيها ، وكل من المحال محل الذكر على الترتيب ، فكيفية ذكر اسم الذات بالقلب أن يلتصق اللسان بسقف الحلق ، وينطلق النفس على حاله[٣] ، والأسنان على الأسنان ، ويتخيل فى القلب لفظة الجلالة بمعناها ، وهو ذاته تعالى الصرفة البحت ، كما هو عليه مفهوم الإيمان به تعالى ، فليستمر على ذلك من غير انقطاع ، وأن يتكلم باللسان عند الحاجة فلا ينقطع خياله ، فانه مدخل لما وراء هذه القوى الوهبانية ، عند رسوخ القلب بالمذكور ونسيان ماسواه ، فإن حقيقة ذكر الشىء نسيان ما دونه ، فإذا دام الذكر دام النسيان ، وإذا ارتسخ يحدث له تكلف باخطار الغير (و) لم يخطر (ثم) انقلب ذكره إلى الروح ثم إلى السر ثم إلى الخفى ثم إلى الأخفى ثم إلى النفس ، فكذلك الرسوخ لما بعد القلب من اللطائف على الترتيب المذكور . فإذا ارتسخ الذكر فى لطيفة النفس حصل سلطان الذكر ، بأن يعم على جميع الإنسان بل على جميع الآفاق أيضاً ، (ثم) يتلقن بالنفس والإثبات بكلمة لا إله إلا الله ، وكيفيته أن يلتصق اللسان كالأول ، ويحبس النفس تحت

---

(١) السر طبقا للصوفية جزء من الجسم الأنسانى والبعض وصفوه بين القلب والروح وآخرون بعد الروح .Sprenger, Dict . of, Technical terms p. 653 خدابخش

(٢) لم يميز البعض بين الخفى والأخفى .Spren ger p. 542 خدابخش

(٣) معنى هذا أن موضع الذكر فى الدورة المذكورة يتحول إلى أجزاء من الجسم الأنسانى تزداد خفاءا شيئا فشيئا خدابخش

السرة ، ويتخيل منها لا [١] إلى منتهى الدماغ ، ومنه إله إلى الكتف الأيمن ، ومنه إلا الله إلى القلب ، فيحيط على محال اللطائف كلها ، ويلاحظ معناها ، بأن لا مقصود إلا ذات الله ، فإن نفى المقصودية أبلغ ، لأن كل معبود مقصود وإن لم ينعكس ، وفى آخرها محمد رسول الله ، ويريد به التقيد بالأتباع ويكررها على قدر قوة النفس ، ويطلقه من الفم على الوتر ، : ويقول : اللهم أنت مقصودى ، ورضاك مطلوبى ، كما يتخيل بعد كل تهليلة ، فإذا استراح الذاكر يشرع فى نفس آخر ، لكن يراعى ما بين النفسين ، بأن لا يغفل قلبه بل يبقى التخيل على حاله لئلا يخل الاستمرار ، فاذا انتهى العدد إلى أحد وعشرين تظهر النتيجة وهى نسبتهم من الذهول والاستهلاك [٢] ، وإن لم تظهر فيما وقع من الخلاف فى الآداب ، فليستأنف وليطابق القول والفعل مضمون الذكر عملا واعتقاداً واتباعا ، فإن المقصودية فيما سواه إذا كانت باقية ، أو خلاف الاتباع فى شىء ، إذا كان ثابتا فى الواقع لزم الكذب فليس بصادق ، ولا حصر فى العدد . فإذا جاهد فيه حق الجهد ، وانتفى المنفى ، وثبت المثبت ، وظهرت النتيجة ، تصح له المراقبة ، وهى أن يلازم القلب معنى اسم الذات ، على مفهوم الإيمان ، على طريق الاستغراق والإستهلاك بحيث لا ينفك عنه ، فإذا انتهى أمره إلى انتفاء العلم مطلقا (و) حصل له مبادى الفناء ، يسوغ له الذكر اللسانى بلا إله إلا الله ، مع التدبر الحقيقى ، وأقله خمسة آلاف فى الملوين ، وبحصول الفناء التام حصلت له أول درجة الولاية

---

(١) من المحتمل أن يكون عليه أن يفكر فى الحروف العربية ذاتها : وفى حالة الله فقط عليه أن يفكر فى الكلمة ومعناها خدابخش

(٢) يبدو أن هذه الكلمات محرفة . خدابخش (ليس هناك تحريف فيما يبدو . المترجم)

الصغرى ، وبقى ذلك بالله تعالى » [١]

ويتضح لنا من هذه الفقرة التى تمدنا بوصف جيد إلى حد ما لأسلوب المتصوفة العرب والفرس أن هناك شرطا أساسيا لتأدية الذكر ، وهو حجز هواء التنفس بشكل خاص ، وعلى ما يقال تحت السرة فى الحقيقة ثم تلاوة صيغة الذكر عدداً معينا من المرات فى نفس واحد [٢] ، ثم إضافة الجزء الثانى من العقيدة الإسلامية الذى يشمل اسم الرسول حين يصل المبتدىء إلى عدد غير متساوى ، وهناك ظاهرة أخرى تسترعى انتباهنا وهى أن النفس يجب أن يوجه نحو جزء خاص من الجسم ، وهى استحالة طبيعية يمكن أن يصدقها المتحمسون من أمثال هؤلاء المتصوفة الشرقيين فقط . ومع ذلك فإنه كان فى الاستطاعة تعليق أهمية قليلة على هذه الأفكار الخاصة التى تسترعى انتباهنا فى أصول تعاليم الدراويش النقشبندية لو أنها كانت توجد عندهم وحدهم ولا توجد عند الطوائف الأخرى . ولكننا نلاحظ القواعد نفسها الخاصة بالتحكم فى النفس عند طائفة الدراويش القادرية وهى أقدم من طائفة النقشبندية بحوالى عدة قرون ، فلائحة الدراويش القادرية تقرر أنه فى أثناء الذكر يجب على الشخص القائم بالذكر أن يبعد بيديه كل أثر للفكر الخارجى ويتحكم فى النفس حتى تتنبه الحواس الداخلية [٣] ويتضح لنا من عدة عبارات فى كتب شرقية أن هؤلاء المتصوفة كانوا يعتقدون أن التحكم فى النفس بطريقة

---

(١) توجد القواعد الجارية عند النقشبندية عن الذكر فى مختصر الولاية للسمرقندى « مات سنة ٧٩ هـ » مخطوطة فينا « أنا مدين فى ترجمة هـذه الفقرة للاستاذ مرجليوث . خدابخش » (انظر ملاحق النسخة الألمانية . المترجم)

(٢) يتضح من الفقرة المذكورة بعاليه أن هذا غير صحيح . خدابخش

(٣) قابل بورقى . Mollah shah etle spirtu alisme oriental (Jowrn asiat. 1889)

صناعية يوجد قوى غير طبيعية ويعتبر وقاية من الأخطار على اختلاف أنواعها حتى من الموت نفسه [١] . وتوجد فى نفائس الفنون [٢] ذلك الكتاب الكبير المتعدد الموضوعات أحسن المعلومات عن هذا الموضوع . وإنى ذاكر هنا العبارة الآتية [٣] :

« الفصلان التاسع والعاشر — علوم التنفس والتصور . والأول يتناول الكلام على حركات النفس وعلاماتها والثانى على حصر التصور وطريقة التصرف فيه . والهنود يقدرون هذين العلمين تقديراً كبيراً ، وعندما يصل شخص إلى درجة الكمال فيهما يسمونه جوكى ويعدونه من بين الأرواح المقدسة ، وهم يقولون إن واضع هذين العلمين هو كاماك ديو ، ويسمون الكائنات الروحية ديو ، ويؤكدون أن كاماك لايزال حيا يعيش فى كهف فى مدينة كامرو ، ويحجون إلى هذا الكهف سعيا وراء مصالحهم بل ويؤكد بعضهم أنهم رأوه فعلا ، ويرسل ملك تلك الجهات كل يوم إلى هذا الكهف طعاما شهيا وروائح فاخرة فتوضع عند مدخله ثم تختفى من هناك فى الحال ، وهذان العلمان مشروحان شرحا وافيا فى كتاب كامرو وهجاسكا الذى له قيمة كبيرة عندهم ، وكل علم من هذين العلمين سيبحث هنا فى فصل خاص :

١ — عن علم التنفس : أعلم أن النفس يأتى تارة من الجانب الأيمن وتارة من الجانب الأيسر كما أنه يأتى من الجانبين فى وقت واحد . وهم يربطون الجانب الأيمن بالشمس والأيسر بالقمر ويؤكدون أيضا أنه فى مدى أربع وعشرين ساعة يحدث التنفس ٢١٦٠٠ مرة بمعدل ٩٠٠ مرة تقريبا فى كل

---

(١) قابل بالمخطوطة التى فى حوزة فون كريمر (٢) يحتمل أن يكون مؤلف هذا الكتاب هو محمود آملى الذى مات سنة ٧٥٣ هـ

(٣) راجع الأصل الفارسى فى ملاحق النسخة الألمانية . المترجم

ساعة ، ولا يحدث التنفس بمعدل ٩٠٠ مرة أو أكثر أو أقل فى الساعة الواحدة فى أوقات قليلة . وهم يقولون إنه فى أغلب الأحيان يحدث التنفس ١٦٠٠ مرة فى الساعة وأن النفس يأتى كل ساعتين من مكان مختلف . وليس من غير الأمور العادية أن يأتى النفس يومين أو ثلاثة من المكان نفسه . وهناك بعض الجوكية يتنفسون مرتين فقط فى مدى أربع وعشرين ساعة مرة فى الصباح ومرة فى المساء ويؤكدون أنه إذا كان من الممكن وقف التنفس إلى هذا الحد أى لمدة نصف يوم فانه من الممكن أيضا وقفه لمدة ستة شهور . وهم يظنون أنه إذا نجح الإنسان فى وقف تنفسه إلى ذلك الحد فان ذلك يكون أحسن وسيلة لحفظ الحياة وتحاشى المرض ونيل السعادة » ، وهذا الخبر عن معتقدات الهنود الخرافية فيما يتعلق بوقف التنفس يؤيده مصدر آخر ، إذ يقال فى كتاب دبستان عن الجوكية الهنود : — « ولوقف النفس عندهم أهمية كبيرة على نحو ما كان يفعل عند الفرس آزر هوشنك وملوكهم . . »[١]. ولو أننا سرنا فى أبحاثنا إلى أبعد من هذا لوجدنا الفكرة نفسها فيما يتعلق بوقف النفس ترد فى كتاب من كتب مدرسة الفدنته وهو « the Vedanta-Sara »[٢] ، وفيه توجد الأنفاس مرتبة حسب أجزاء الجسم التى ترد منها . وهذا الترتيب يذكرنا بشدة بالجزء من تعاليم الدراويش النقشبندية الذى يندرج تحت عنوان وقف التنفس والذكر وحالة التفكر (المراقبة عند المتصوفة العرب والفرس) ، وهو يذكر بين الأشياء الأخرى الحالة الخاصة التى يكون الشخص جالسا فيها أثناء

---

(١) Dabistan Eng. tr. vol II, p.130 قابل أيضا vol. I, pp. 79, 111, 118
Vol II, pp. 137-8,

(٢) Poley vedanta .Sara in the sitzungsberichten der Wiener Akademie LX 111, 18 69

تفكره ثم وقف النفس الخ .. [1] وفضلا عن ذلك نجد فى هذا الكتاب مذكوراً تمريناً روحياً يتألف من تكرار صيغة خاصة بكثرة (مثل tatwam asi ومعناها يا من) ثم نجد فيه أمراً يشبه شبهاً كبيراً ذكر الدرويش ويرتبط إرتباطاً شديداً بأوراد الدراويش بوجود فكرة وقف التنفس . وفضلا عن ذلك فنحن نلاحظ فى مدرسة الفدنته أفكاراً وتعبيرات توجد حتى بين المتصوفة الفرس المتأخرين ، فمثلا فى مله شاه Mallah Shah نعثر على التعبير الآتى « حلت عقدة القلب » ومعناها أن التلميذ اطلع على خفايا التصوف وبدأ يشاهد الخيالات ، وتوجد العبارة ذاتها فى كتب الفدنته مثل كتاب فدنته سره The Vedanta Sara حيث يذكر « انشقت عقدة القلب » . ومعناها زالت جميع الشكوك واطمأن الحال . وهناك تعبير يتكرر عند مدرسة الفدنته وهو « إن من يعرف برهما الأعلى يصبح هو نفسه برهما فيتغلب على الألم ويتعدى مرحلة ارتكاب الجرائم ويخلو من عقد القلب (أى من الجهل والخداع .) . وهذا التشابه الظاهرى بين النظامين نظام الفدنته ونظام التصوف العربى والفارسى يؤكده أيضا التشابه الداخلى العظيم بينهما ، فكلاهما يتبعان مذهب وحدة الوجود ، وموضوعهما اتحاد الإنسان بالله أى ببرهما . ونحن عندما نرى أن هذا النظام الخاص من الفلسفة نشأ بين الهنود فى زمن متقدم جداً وأن سنكره شريه Sankara Charya ، مؤسس الفرع الأصغر من مدرسة الفدنته عاش فى القرن الثامن الميلادى نضطر أن نعزو بحق نشأة ذلك التصوف

---

(١) قارن الرسالة الصوفية لعزيز بن محمد النسفى ، وأنسب طريقة للجلوس طبقا للفكرة الهندية هى الجلوس على شكل اللوتس أى مكتف الأرجل .

الإسلامى الذى ظهر بعد ذلك بكثير والذى يشبه هذا التشابه الظاهرى والباطنى تعاليم مدرسة الفدنته إلى مؤثرات هندية .

ونحن فى هذا نستمد دليلا جديداً على التغير الكبير الذى اعترى الإسلام رغم جموده (كذا) بتأثير النظم الدينية الأجنبية والنظم الفلسفية الأجنبية .

وهناك ظاهرة عجيبة حقا وهى أنه مثلما نلاحظ أثر البوذية فى أيام الإسلام الأولى كذلك تبدو بوضوح آثار الفلسفة البوذية فى تطوراته الأخيرة ، وقد غيرت الأفكار البوذية إلى حد ما ذلك التصوف الإسلامى الذى نبع من مدرسة الفدنته .

والفكرة العالمية عن وحدة الوجود ظاهرة معروفة لمدرسة الفدنته والبوذية والأدرية المسيحية ، ومن هذا وحده لا نستطيع أن نقرر بأى درجة من التحديد رأيا فيما يختص بالمصدر الذى أخذت عنه الفكرة العالمية عن وحدة الوجود التى نجدها فى التصوف. وفى تعاليم المتصوفة فى الإسلام . على أنه توجد أفكار أخرى من أصل بوذى مسلم به ، فنحن نلاحظ بين المتصوفة المتأخرين نظرية لا خلاف فى أنها بوذية وهى أن المتصوف وهو غارق فى الهيام الصوفى وأعمق حالات التفكر يرى أضواء ملونة مختلفة تتتابع بنظام خاص ، وهذه الظاهرة تختفى فقط عندما يبلغ آخر مرتبة من مراتب السمو وهى التى تعرف عندهم باسم العالم الذى لا لون له (عالم بيرنكى) [١]. وعند البوذيين أسمى حالة من حالات التدرب على التصوف هى حالة بوذا أى الرجل المتحول إلى إله ، والمرتبة التالية هى مرتبة ذيانه Dhyâna (التفكر والمراقبة) وهى أبعد نقطة لا يستطيع التفكير أن يتعداها وعندها يجرد العالم عن جميع

---

(١) انظر ورقتي عن mollah shah في . Journal asiati que .1869

الأشكال ، ويوصف العالمان الثانى والثالث بأنهما مقر للشكل واللون . ولا تقل عن هذه فكرة القوى العجيبة التى تضفى على الزهاد الجوكيه ، وهم بوذيون فى الأصل ثم نقلوا إلى الاسلام من البوذية على ما يظهر (١). ولا نزاع فى أن نظرية الاعتراف التى أدخلت إلى بعض طوائف الدراويش من الأصل نفسه أيضا (٢). ونظراً للحقائق التى استشهدنا بها يجب التسليم بأن النظام الفلسفى الفارسى والعربى المعروف باسم التصوف من أصل هندى . على أنه لا يمكن الشك بصفة جدية فى أن أفكاراً أدرية مسيحية بل ومانوية كثيرة قد تسربت إليه . ويرجع أصل التصوف العربى الأول المعروف بنزعته الصادقة إلى الزهد إلى المسيحية إلى حد كبير ، ولكن التصوف المتأخر فى الزمن الذى لا يراعى إلى حد ما العقائد الإسلامية بل ويعتبر إلحاداً يشتمل على العكس من ذلك آراء الأفلاطونية الحديثة وكثيراً من العناصر الهندية .

وهكذا نستطيع أن نقرر بدرجة من التحديد التغيرات المختلفة التى أعترت الإسلام بتأثير الأفكار الأجنبية : فالمسيحية أولا أدت إلى نمو عناصر الزهد ووضعت أساس علوم الدين فى الإسلام ودراسات المدارس الإسلامية التى نمت فيما بعد نمواً كبيراً . وكانت المانوية التى تمتعت بأيام من العز الشامل فى عهد المأمون عامل هدم خالص ، إذ أنها أوجدت وتعهدت الاستهتار والألحاد

---

(١) Lsssen, Indis che altertumslkunde vol. III pp. 387 ff Kaeuffur
Kaeuffur, Gesch. von ostasien , vol . II . p .537
قارن بما فى . Journal asiatique . 1867 april . may . p . 275 note I
(أصل الصوفية مشروح فى كتاب Browne, lit . hist . ofpersia . pp. 418 et saq . «خدابخش»

(٢) Gesch . d. hersch . Ideen p. 256.

الدينى بين المسلمين إلى حد أن لفظ الزنديق أصبح مرادفا لحر التفكير والكافر وقد دخلت فكرة المسيح إلى الإسلام فى أيامه الأولى من اليهودية ولعبت دوراً هاماً بين الشيعة . ومن الواضح أن فكرة العصر الألفى أى الألف عام التى سيملك فيها المسيح على الأرض ونظرية البعث تمت على العكس من ذلك إلى المسيحية . وقد أنتجت هذه المثيرات الدينية حركة فكرية حرة وأيقظت بين المسلمين الرغبة فى دراسة الثقافة الأجنبية حتى أنه فى فترة قصيرة جداً أصبحت كثير من مؤلفات المفكرين الأغريق فى متناول العرب بفضل الكتب المترجمة إلى العربية .

وقد أصبحت فلسفة أرسطو عوناً لعلم الكلام فى الإسلام لا يستغنى عنه ، ومن جهة أخرى عرفت كتابات « الأولين » العرب بمؤلفات المدرسة الأفلاطونية وعلى الأخص فى شكلها الأفلاطونى الحديث ، وبتأثيرها تكونت مدرسة جديدة أصبحت منافسة لفلسفة أرسطو وثبت أنها خطرة على الإسلام السنى بقدر ما كانت فلسفة أرسطو فى مصلحته ، وهذه المدرسة الفلسفية التى كان أتباعها يلقبون « بالأشراقية » ، وجدت فى السهروردى الذى جعل له موته المحزن صيتا بعيدا أعظم بطل لها .

وقد أدخلت البوذية ونظريات مدرسة الفدنته فكرة وحدة الوجود التى كانت لها شهرة زائدة دائما فى الأقاليم الشرقية بصفة خاصة وهى الهند وفارس بل وآسيا الصغرى وأوجدت عدداً من طوائف الدراويش .

وعلى ذلك فإن الإسلام طبقا لقانون التاريخ العالمى تغير فى مدى اثنى عشر قرنا تغيراً لا يقل عن التغير الذى اعترى الديانات الكبرى الأخرى وليس هناك أثر لظاهرة عدم التغير التى يرى الكثيرون خطأ أنها الظاهرة التى يمتاز بها المجتمع الشرقى .

ولـكن كما أن المسيحية تركت أثراً عميقاً فى بادىء الأمر ، يجب الآن كذلك وظلال المساء تتمايل حول الإسلام أن يعرض هذا الدين للمؤثرات المسيحية من جميع الجهات ، تلك المؤثرات التى تأتى إليه بثمار الحضارة الأوربية وتهيئه لإصلاحات أوسع مدى وأكثر أهمية من جميع الإصلاحات التى اعترته حتى الآن . وقد يكون من الخطأ الفاضح الزعم بأن إدخال مثل تلك الإصلاحات يمكن أن يحطم دين القرآن ، فهو والحق يقال أثبت وأرسخ فى قلوب الناس من هذا . والأمل كبير فى أن يخرج من هذا الصراع أكثر قوة وأشد طهارة وصفاءا .

وكلما ازدادت القوة الدافعة للمسلم إلى أن يتعلم كيف يهيىء نفسه لحاجات الزمن ويتعلمها بحق عن الأوروبيين الذين لم يعد ينكر الاعتراف بتفوقهم الكبير كلما زاد اقتناعه بالسير فى الطريق الصحيح طريق الحياة العملية التى أبعدته عنها التخيلات الخرافية والصوفية والتأملات الدينية .

ملاحق الكتاب

ملحق رقم (١)

يبدو ان كريمر مخطىء فى قوله إن عمر الأول أصدر أمراً للعرب يمنعهم من تملك الأرض أو العمل فى الزراعة ، ويقول ولهاوزن فى كتابه « Das Arabische Reich und Sein Sturz. » إنه لم يحدث أبداً أن صدر أمر عام يمنع العرب من تملك الأرض فى الولايات ، فخلفاء النبى بما فيهم أبو بكر وعمر كانوا مثل النبى يتخلصون من أراضى الدولة ويمنحون منها قطائع للسلمين المستحقين والبارزين لا بصفة إقطاعات فحسب بل بصفة أملاك خاصة أيضا وكان من أثر ذلك أن جمع على وطلحة والزبير ثروة كبيرة (قابل ابن خلدون — المقدمة جـ ١ ص ٤١٦) ، وحتى عهد عمر كان العرب مشغولين جداً بأمر الفتوحات عن أن يفكروا فى حرفة الزراعة السلمية ولذلك فإن ولهاوزن يرى من الصعب أن تكون الحكومة فى عهد الخليفة الثانى قد احتاجت إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء ، أو من الصعب حتى إذا كان العرب على أى حال قد اتجهوا نحو الزراعة عندئذ أن تكون لمثل هذا الإجراء آثاره السيئة (ص ١٧٢) .

ويرجع الفضل فى وجود مؤلف يحيى بن آدم القيم عن الخراج فى أيدينا الآن إلى جوينبل Joynboll . وهو من أقدم الكتاب العرب الذين كتبوا فى هذا الموضوع كما أنه المرجع الذى استقى منه الذهبى والنووى وابن قتيبة وابن الأثير وياقوت وغيرهم ، وقد مات فى القرن الثانى للهجرة ، ويقال إن موته حدث سنة ٢٠٣ هـ .

الغنيمة هي ما استولى عليه المسلمون في الحرب الفعلية ، والفيء هو ما حصل عليه المسلمون بالمعاهدات .

وتشمل الغنيمة كل ما يستولون عليه قل أو كثر حتى ولو كان إبرة ما عدا الأرض لأن الأرض من حق الإمام ، وقد يوزعها إلى خمسة أجزاء ويعطى أربعة أخماس للذين اشتركوا في القتال إذا رأى ذلك مناسبا أو قد يتركها مثل الفيء لمصلحة الجماعة الإسلامية كلها إذا رأى ذلك كما فعل عمر بالسواد (ص ٤ يحي بن آدم) ويظهر من هذه العبارة أنه فيما يختص بالأرض التي تكسب في الحرب الفعلية ، يستطيع الخليفة طبقاً لرأيه المطلق أن يحتفظ بها لمصلحة الجماعة الإسلامية كلها أو يقسم أربعة أخماسها بين الجند الذين اشتركوا في الحرب . والحقيقة فيما يختص بالفيء (وهى الأرض التي تؤخذ نتيجة لمعاهدات أو تسليم — الأرض التي لم تقع من أجلها حرب فعلية) أنها كانت دائما تبقى لمصلحة الجماعة الإسلامية كلها . ومع ذلك فإنه حتى تلك الأراضي التي كانت تقع للجنود بصفة غنيمة من غنائم الحرب كانت لا تصبح أبداً ملكا لهم ، أو كان يندر جداً أن تعطى لهم ، إذ كان يسمح ببقائها في ملك أصحابها الأصليين بقصد راحتهم ، وكانوا يستمرون في امتلاكها في مقابل دفع ضريبة كانت تجمعها الدولة وتوزعها كل سنة بصفة مرتبات للجند ، ومن هنا أصبح التمييز بين أراضي الدولة (الفيء) وبين الأراضي التي تدفع للدولة ضريبة لمصلحة الجند تمييزاً لا أهمية له ، تمييزاً علمياً فقط ، مادام دخل كل من أراضي الفيء والأراضي التي تدفع ضريبة للدولة لمصلحة الجند كان يصل إلى خزانة الدولة سواء بسواء .

وبصرف النظر عن وجود أي أمر يحول بين العرب وزراعة الأرض

فإن القاعدة التى وضعها النبى كانت متبعة فى الولايات جميعها وهى : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق » (يحيى ص ٦٣) . وحتى عمر نفسه كتب إلى الأهالى « من أحيا مواتا فهو أحق به » (ص ٦٤) ، ويظهر أن هذه القاعدة طبقت على جميع المسلمين .

ويبدو أنه كان يوجد نوعان من الاراضى: أرض الصلح وأرض الخراج، فأرض الصلح كانت هى الارض التى سلمت للمسلمين بشروط تسليم أو بمعاهدات وكانت تدفع المبلغ المحدد طبقا لشروط التسليم . وأرض الخراج كانت على العكس من ذلك هى الارض التى سلمت بقوة السلاح (الهداية ص ٢٠٥ ج ٢) وفرض عليها دفع الخراج (يحيى ص ٦) . وفيما يختص بأرض الصلح لم يكن هناك مانع يحول دون شراء المسلمين لها ولكن فيما يختص بأرض الخراج كان يعتبر شراؤها فى غير محله طالما كان الخراج عند ما يفرض مرة على الارض لا يمكن رفعه وكان دفع الخراج بالنسبة للمسلمين يعتبر إهانة (يحيى ص ٣٧) ، وقد منع عمر شراء أرض أهل الذمة (ص ٣٨) لانه « نهى أن يشترى أحد من أرض الخراج أو رقيقهم شيئاً وقال لا ينبغى لمسلم أن يقر بالصغار فى عنقه » (ص ٣٩) ، وكان هذا الاعتراض له أهمية عظيمة جداً حتى أنه عند ما اشترى ابن مسعود أرضاً من دهقان اشترط عليه أن يدفع ضريبة الارض أى الخراج ، ولكن على العكس من ذلك كان المسلم إذا ورث أرضاً من والده غير المسلم يسمح له بامتلاكها على أن يدفع الخراج ومثال ذلك أن ابن سيرين ورث عن أبيه قطعة أرض وكان يدفع خراجها (يحيى ص ٨ ، ٤١) ، وكان من عادة عمر وعلى أن يسمحا للرجل عند تحوله للإسلام أن يحتفظ بالارض فى السواد على أن يدفع خراجها (ص ٤٣ قابل ص ٥١) .

أما فيما يختص بالفيء أو أراضي الدولة فإنها كانت عبارة عن أراضي التاج التي كانت تابعة لملوك فارس وأراضي الذين قتلوا أثناء الفتح الفارسي أو الأراضي التي تركها أصحابها وبالاختصار جميع الأراضي التي لا يطالب بها أحد ولم يكن يفرض على هذه الأراضي خراج وكان للإمام أن يقرر ما إذا كان سيتركها للزراعة على أن يدفع لبيت المال جزء من المحصول أو سيزرعها بعمال مؤجرين لمصلحة الجماعة الإسلامية أو يعطيها بصفة ملكية خاصة لشخص يؤدي خدمة للمسلمين (ص ٨) .

ملحق رقم (٢)

هذه العبارة توجد في : De Goeje, Frag. Hist. Arab., pp. 41–46 وأهميتها كبيرة لأنها تبسط آراء الخوارج وتبين كيف كان يتلقى أهل السنة هذه الآراء ويجب قراءتها مع القصيدة الموجودة في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ التي تمدنا بصورة صادقة جداً لآراء المرجئة :

« خرج على عمر (يقصد عمر بن عبد العزيز) في خلافته جماعة من الخوارج في سنة ١٠٠ وعليهم بسطام بن مرة ، وكان في حديثه أنه قال لأصحابه يا أخلاي إنكم قد باينتم قومكم في ولاية هذا الرجل وهو يأمر بالعدل ويظهره ويعمل به فاعدلوا فيما بينكم وبينه ، وادعوه إلى أمركم . فكتبوا اليه ، فعظموا طاعة الله وأمره ، وعابوا الظلم وأهله ، وكرهوا أهل الكبائر وبرئوا منهم ، ودعوه إلى رأيهم وإلى براء من علي (عم) وعثمان ورد أحكام عثمان (رضه) وماحكم به علي (عم) بعد الحكمين ، واستأذنوه في أن يوجهوا من يناظره ويؤمنه فكتب عمر : إلى العصابة الذين خرجوا بزعمهم التماس الحق ، أما بعد فإن الله تعالى لم يلبس على العباد أمورهم ، ولم يتركهم سدى ، ولم يجعلهم في عمياء ،

فبعث إليهم النذر وأرسل اليهم الكتب ، وبعث محمدا ﷺ بشيراً ونذيراً وأنزل عليه كتاباً حفيظا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، قد علم ما يأتون وما يتقون ، فأوصيكم بتقوى الله وشكر نعمه ، والاعتصام بحبله ، والتوكل عليه ، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه . وقد بلغني كتابكم وما دعوتموني إليه ، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ، وقد خاب من دعى إلى الحق فلم يجب ، وذكرتم نعم الله على عباده وما أمرهم به من الطاعة ، فلله الحجة البالغة ، وسألتموني أن أحكم بالعدل وأقوم بالقسط ، وفى الحق مقنع وفوز نجاة لمن عمل به ولكل نبأ مستقر ، فلكم الذى سألتم وبالله التوفيق ، وسألتموني رد ما حكم به من كان فى صدر هذه الأمة من الأئمة إلا ما كان من حكم أبى بكر وعمر وعلى قبل الحكمين ، ومن كان بعدهم من الأئمة كانوا أقرب عهد برسول الله ﷺ وأصحابه والله يشهد على أحكامهم ويعلمها ، وسألتموني الأذن لكم فى قدوم طائفة منكم على ، فمن أحب ذلك فليقدم على آمنا لا أحجبه ولا أبسط إليه يداً ، وإنى أدعوكم إلى الله تعالى ورسوله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإنابة إلى أمر الله تعالى ، فأذكركم أن لا تخالفوا أمر الله وكتابه وسنة نبيه ، فقد بين لكم الهدى وأراكم البينات ، فاقبلوا أمر الله وإياكم والبدع والغلو فى الدين والسؤال عما كفيتموه فقد سبق فيه من الله تعالى ما قد سمعتموه من قوله : يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم فهذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة ، فإن تقبلوا يقبل الله تعالى منكم ، وإن تعرضوا فإن الله أمامكم ومن ورائكم ، فمن ذا يعجز الله ، وشر الدواب عند الله الصم البكم ، وقلتم لا حكم إلا لله ، فالحكم لله العظيم ، ومن أحسن

من الله حكما لقوم يوقنون . وبعث بكتابه اليهم مع عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ومحمد بن الزبير الحنظلى ، وقال لهما : إن هؤلاء القوم قد خرجوا علينا بأسيافهم ، فإذا قدمتما عليهم فادعواهم إلى وإلى الجماعة ، فإن دعونا من كتاب الله إلى مالم أعمل به فاضمنا عنى العمل به ، وإن دعونا من كتاب الله إلى ما قد علمناه وجهلوه فحاجاهم حتى يرجعوا اليه ، فقدما عليهم ، فقال عون : أيها العصابة ، إنا قد أقمنا من كتاب الله عز ما قد حفظنا ، وعملنا بما علمنا ، فهل عندكم من عمل فتخرجوه لنا ، أم أمنتم على أنفسكم ما خفتم على قومكم ، أم رجوتم شيئا لأنفسكم يئستم منه لقومكم ، أم تقولون ذنوب قومكم شرك ، وذنوبكم ذنوب . قالوا نترك الذنوب كفرا لقول الله تعالى - ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . قال أخطأتم التأويل ، من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً فهو كافر ، فأما حاكم وقع حد فدرأه عن صاحبه وهو مقر بالآية فلا يكون كافراً ، لأن الله تعالى قال : وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، وقال الله عز وجل : زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . وهؤلاء يؤمنون بالغيب ، وأمير المؤمنين رضى الله عنه مجتهد لنفسه فى الحكم بالعدل وإحياء ما قد أميت ، فاتقوا الله وانظروا لأنفسكم . قالوا فإن عمال صاحبكم يظلمون . قال فتولوا أعماله . قالوا لا نعمل له . قال : فكونوا أمناء على عماله ، فأى عامل منهم عمل بغير الحق فاعزلوه . قالوا ولا هذا ، وقرأوا كتاب عمر . قالوا فنوجه رجلين يكلمانه فإن أجابنا فذاك وإن أبى فالله من ورائه ، فأرسلوا مولى لبنى شيبان يقال له عاصم ورجلا من أنفسهم من بنى يشكر . فقدما جميعا على عمر (رضه) وهو بخناصرة ، فصعد إليه عون ومحمد ابن الزبير وهو فى غرفة وعنده ابنة عبد الملك وكاتبه مزاحم ، فأخبراه بمكان

الرجلين ، فقال : فتشوهما لعل معهما حديد ثم أدخلوهما ، ففعلا ، فلما دخلا قالا : السلام عليكم ، وجلسا . فقال عمر : ما أخرجكم هذا المخرج وما الذى نقمتم . فقال عاصم ، وكان حبشيا : ما نقمنا سيرتك ، لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك ، أعن رضى الناس ومشورة ، أم ابتززتم أمرهم . قال : ما سألتهم الولاية ولا غلبتهم على مشيئتهم ، وعهد إلى رجل عهداً لم أسئله والله قط فى سر ولا علانية فقمت به ، ولم ينكره على أحد ، ولم ينكره غيركم ، وأنتم ترون الرضى بكل عدل وأنصف من كان من الناس فاتركونى ذلك الرجل فإن خالفت الحق ورغبت فلا طاعة لى عليكم . قالا : بيننا وبينك أمر واحد قال : وما هو . قالا : براءتك ، خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم ، وسلكت غير طريقهم ، فان كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم فقال عمر (رضه) : قد علمت أنكم إنما تخرجون طلبا الدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها . إن الله تعالى لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا ، وقال ابراهيم فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . وقال الله : أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . وقد سميتم أعمالهم ظلما ، وكفى بذلك لهم ذما ونقصا ، فاسئلوا الله حسنا فيما آتاكم ، ودعوا ما فاتكم ، فليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فان قلتم إنها فريضة فأخبرنى أيها المتكلم متى لعنت فرعون ، قال : ما أذكر متى لعنته . قال : فيسعك ألا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وأشرهم ولا يسعنى أن ألعن أهل بيتى وهم مصلون . قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس فكان من أقر بالإيمان وشرائعه قبل منه فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد . قال الخارجى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى التوحيد بالله والإقرار بما

أنزل من عنده والعمل بما بين من سنته ولو قالوا نؤمن بما جاء من عند الله ونخالف سنتك ما قبل ذلك منهم . قال عمر : فليس أحد يقول لا أعمل بسنة رسول الله ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أن الذى أتوا محرم ، ولكن غلب عليهم السفاء . قال : فابرأ ممن خالف أعمالك ورد أحكامهم . قال : فأخبرنى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أليسا من أسلافكم قالا : بلى . قال : فهل تعلمون أن أبا بكر رضى الله عنه حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وسبى الذرارى وأخذ الأموال قالا : نعم . قال أفتعلمون أن عمر رضى الله عنه رد بعده السبايا إلى عشائرهم بفدية فدوهم بها ؟ قالا : نعم قال : فهل برىء عمر من أبى بكر رضى الله عنهما ؟ قالا : لا . قال : أفتبرأون أنتم من واحد منهما ؟ قالا : لا . قال : فأخبرونى عن أهل النهر وهم أسلافكم هل تعلمون أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ولم يأخذوا مالا ، وأن من خرج إليهم من أهل البصرة اعترضوا وقتلوا عبد الله بن خباب وجاريته ؟ قالا : نعم . قال : فهل برىء من لم يقتل ممن قتل واستعرض ؟ قالا : لا . قال : أفتبرأون أنتم من أحد الطائفتين ؟ قالا : لا . قال : أفوسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة ، وقد علمتم اختلاف أعمالهم فى الفروج والأعمال ولا يسعنى إلا البراءة من أهل بيتى والدين واحد ؟ فاتقوا الله فأنتم جهال تقبلون من الناس مارد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتردون عليهم ما قبل ، ويأمن عندكم من خاف ويخاف عندكم من آمن عنده وشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمنا وحقن دمه وأحرز ماله ووجبت حرمته وأنتم تقتلونه ولا تقتلون سائر أهل الأديان ، فتحرمون

دماءهم ، ويامنون عندكم . قال اليشكرى : أرأيت رجلا ولى قوما وأحوالهم فعدل فيها صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذى لزمه أو تراه قدأسلم ؟ قال : لا . قال : أفتسلم هذا الأمر ليزيد من بعدك وأنت تعلم أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : انما ولاه غيرى ، والمسلمون أولى بمايكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ما صنع من ولاه حقا ؟ فبكى عمر رضى الله عنه ، ثم خرجا فقال مولى بنى شيبان : لقد رأيت رجلا يتحرى الخير ، وما سمعت حجة أبين ولا مأخذا أقرب منه ، فارجع بنا إليه . فرجعا ، فقال عاصم الحبشى : أما أنا فأشهد أنك على الحق . فقال عمر رضى الله عنه لصاحبه اليشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما قلت وما وصفت ، ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم ... »

وقد كان للخوارج عقيدتان أساسيتان هما :

(١) أن أى عربى حر له الحق فى أن ينتخب خليفة .

(٢) أن أى خليفة فشل فى إرضاء جماعة المسلمين يمكن أن يعزل (Brünnow, P 7 و Browne P. 220) .

وهاتان العقيدتان الأساسيتان على قول الأستاذ براون زادتا اتساعا فيما بعد بواسطة الخوارج الأكثر تحمسا بجعل « المسلم الحسن الإسلام » فى مكان « العربى الحر » فى هذه الصيغة ، وإضافة الكلمات « وإذا دعت الضرورة يقتل » بعد « يعزل » (p. 220, note 3) ، وبرونو على حق تماما فى قوله إن فكرة إعطاء الحق فى الانتخاب للخلافة لأى إنسان غير العربى كانت تكون مستحيلة بين الخوارج من العرب الخلص فى الأزمنة الأولى (P. 9,note I) وكان الخوارج أقرب إلى حزب السنة لأن كلا منهما كان يعتقد بقوة فى مبدأ

الانتخاب على خلاف نظرية الشيعة الخاصة بالوراثة ، ولكن مع هذا الخلاف الهام وهو أن حزب السنة كان لا يمكن أن يتصور أبدا مد مبدأ الأحقية فى الخلافة ليشمل جميع العربَ الأحرار .

وقد كان القرشيون أعظم المسلمين مرتبة فى الأزمنة الأولى وكان يحلو لهم أن يروا أعلى منصب فى الدولة يظل مشغولا بواحد منهم ، حتى أنهم عزوا إلى الرسول قولا يتعلق بهذا الموضوع وهو « الإمامة فى قريش » ، ولكن يدل على أن هذا القول كان اختراعا وأنه لم يكن مقبولا بين العرب بأى حال من الأحوال أن الخليفة يجب أن يكوَن قرشيا ترشيح سعد بن عبادة المدنى أولا والخوارج أنفسهم ثانيا ، إذ أن آراءهم ما كان يمكن أبدا أن توجد على أرض إسلَامية لو أن الناس كانوا يعتقدون بصفة جدية فى صدق قول الرسول المشار إليه فيما سبق . ولكن نفهم هذا الابتعاد عن رأى أهل السنة يجب علينا أن نعرف الناس الذين نبتت بينهم مبادىء الخوارج .

بعد انتهاء الحروب الفارسية استقر معظم الجنود الذين اشتركوا فيها فى المركزين العسكريين اللذين أسسهما عمر الأول وهما الكوفة والبصرة ،وكان معظمهم من عرب الصحراء ذوى الدماء العربية الخالصة ، وعندما عادوا إلى وطنهم أغنياء كرسوا أنفسهم للناحية الدينية من الأسلام ، ومن الصعب الشك فى أن مبادىء الخوارج نمت بين هؤلاء الناس ما دام الخوارج ظهروا أولا فى الكوفة والبصرة ، وكل خوارج الأزمنة الأولى تقريبا الذين وصلتنا أسماؤهم من القبائل الصحراوية الكبرى التى كانت تتمثل تمثلا ظاهرا فى تلك المدن ، ولدينا معلومات يقينية عن واحد على الأقل لعب دوراً هاماً فى الحروب الفارسية (هو هلال بن علافة) ومن المحتمل أن تكون الثورة الكبرى

التى قامت ضد الخليفة عثمان قد علمت لأول مرة هؤلاء البدو ، الذين كانوا لا يعرفون شيئا أو لن يعرفوا شيئا عن أية قداسة خاصة بقريش ، الفكرة التى تقول بأنه من الجائز عزل الخليفة الذى يعمل ضد إرادة الجماعة . ومع ذلك فإننا لا نكون على حق بأى حال إذا ارجعنا الثورة ضد عثمان إلى مثل هذا الرأى ، لأنه حتى ولو كان بعض أفراد مخصوصين قد نحوا هذا النحو فى تفكيرهم لما توفرت لديهم ابدا القوة الكافية لإحداث مثل هذه الثورة الكبرى على أنه فيما يختص بما إذا كانت مثل هذه الفكرة موجودة قبل قتل عثمان أو غير موجودة فإننا نميل إلى القول بأن وقوع هذا الحادث لابد أنه جعلها فى المقدمة ، وعلى ذلك فقتل عثمان كان سببا أكثر مما كان أثرا لفكرة الخوارج القائلة بأنه تحت ظروف خاصة لا يسمح فحسب بعزل الخليفة بل وبقتله أيضا (Brünnow, P. 7 9.)

وقد أستطيع هنا أن أذكر انه طبقا لبعض الأحاديث التى يجب أن ننكرها يقال إن محمدا تنبأ بأن أول خروج سيكون من الرجل الذى يلقب بذى الخويصرة ، وثبت هذا فى الحقيقة لأن ابنه حرقوص كان من بين أول ناس خرجوا على على فى صفين وكان حرقوص طبقا للقاموس هو ذا الخويصرة نفسه (Weil, Mohammedder Prophet, P. 240, note, 378) قابل اليعقوبى (طبعة هوتسما) ج ٢ ص ٣٦٨ وقابل Van Vloten,La domination Arabe, P.31 وقابل الطبرى السلسلة الثانية ص ١٣٤٨ — ٩ — خدابخش .

ملحق رقم (٣)

العبارات الآتية مأخوذة من العقد الفريد لابن عبد ربه . وهذا الكاتب على ما يقول ابن خلكان كان واسع العلم فى الحديث وله معرفة كبيرة بالتاريخ وكتاب العقد الذى ألفه له قيمة عظيمة وبه معلومات عن كل شيء (ج ١ ص٩٢) . وقد ولد فى العاشر من رمضان سنة ٢٤٦هـ (نوفمبر سنة ٨٦٠م) ومات يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٣٢٨هـ (مارس سنة ٩٤٠م) وهذه العبارات تشمل معظم الحجج التى ساقها الشعوبية ضد العرب .

« قول الشعوبية وهم أهل التسوية » .

« ومن حجة الشعوبية على العرب أن قالت أنا ذهبنا إلى العدل والتسوية وأن الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد ، واحتججنا بقول النبى عليه الصلاة والسلام : « المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » ، وقوله فى حجة الوداع ، وهى خطبته التى ودع فيها أمته وختم نبوته : « أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

وهذا القول من النبى عليه الصلاة السلام موافق لقول الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فأبيتم إلا فخراً وقلتم : « لا تساوينا وإن تقدمتنا إلى الإسلام ثم صلت حتى تصير كالحنى وصامت حتى تصير كالأوتار . ونحن نسامحكم ونجيبكم إلى الفخر بالآباء الذى نهاكم عنه نبيكم صلى الله عليه وسلم

إذا أبيتم إلا خلافه ، وإنما نجيبكم إلى ذلك لاتباع حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم ، فنرد عليكم حجتكم فى المفاخرة ، ونقول : « أخبرونا إن قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة ، فإن زعمتم أنه ملك قالت لكم وإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغى لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذى سخرت له الإنس والجن والطير والريح ، وإنما هو رجل منا ، أم هل لأحد مثل ملك الإسكندر الذى ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبنى ردما من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقا من الناس تربى على خلق الأرض كلها كثرة » ، يقول الله عز وجل : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » ، فليس شىء أدل على كثرة عددهم من هذا ، وليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره فى الأرض ، ولو لم يكن له إلا منارة الإسكندرية التى أسسها فى قعر البحر وجعل فى رأسها مرآة يظهر البحر كله من زجاجتها ، وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم إلى عمر بن عبد العزيز : من ملك الأملاك الذى هو ابن ألف ملك والذى تحته بنت ألف ملك والذى فى مربطه ألف فيل والذى له نهران ينبتان العود والفوه والجوز والكافور والذى يوجد ريحه على اثنى عشر ميلا ، إلى ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئا ، أما بعد فإنى أردت أن تبعث إلى رجلا يعلمنى الإسلام ويوقفنى على حدوده والسلام . وإن زعمتم أن لا يكون الفخر إلا بنبوة فإن منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ماخلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وإنما أنتم غصن من أغصاننا

فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا ، ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها من الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهى أبدع صنعة ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة ورمانة القبان التى يوزن رطل واحد ومائة رطل ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والاسطرلاب الذى يعدل به النجوم ويدرك به علم الأبعاد ودوران الأفلاك وعلم الكسوف . لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها أو يقمع ظالمها وينهى سفيهها ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ولا أثر فى فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض ،

فما الذى تفخر به العرب على العجم فإنما هى كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضا ويغير بعضها على بعض فرجالها موثوقون فى حلق الأسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الأبل فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشى وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيع ، فخر بذلك شاعر فقال :

وأوثق عند المردفات عشية

فقيل له ويحك وأى فخر لك أن تلحق بالعشى وقد نكحن وامتهن . وقال جرير يعير بنى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان !

وبرحرحان غداة كبل معبد نكحت نساؤكم بغير مهور

وقال عنترة لامرأته :

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكحلى وتخضبى
وأنا امرؤ أن يأخذونى عنوة أقرن إلى شد الركاب وأجنب
ويكون مركبك القعود ورحله وابن النعامة عند ذلك مركبى

أراد بابن النعامة باطن القدم . وسبى ابن هبولة الغسانى امرأة الحرث ابن عمرو الكندى فلحقه الحرث فقتله وارتجع المرأة وقد كان نال منها فقال لها هل كان أصابك قالت : « نعم والله فما اشتملت النساء على مثله فأوثقها بين فرسين ثم استحضرهما حتى قطعاها وقال فى ذلك :

كل أنثى وإن بدا لك منها   آية الود عهدها خيتعور

إن من غره النساء بود   بعد هند لجاهل مغرور

وسبت بنو سليم ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب فارس العرب فقال فيها عمرو .

أمن ريحانة الداعى السميع   يؤرقنى وأصحابى هجوع

وفيها يقول :

إذا لم تستطع أمراً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

وأغار الحوفزان على بنى منقذ بن زيد مناة فاحتمل الزرقاء من بنى ربيع ابن الحرث فأعجبته وأعجبها فوقع بها ثم لحقه قيس بن عاصم فاستنقذها وردها إلى أهلها بعد أن وقع بها .

فهذا كان شأن العرب والعجم فى جاهليتها ، فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شطر الاسلام وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأحمر والأسود من بنى آدم وكان أول من تبعه حر وعبد ، واختلف الناس فيهما فقال قوم أبو بكر وبلال وقال قوم على وصهيب . ولما ظهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم صهيبا على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس وقال له : «استخلف» فقال ؛ « ما أخالنى بمن استخلف » فذكر له الستة من أهل حراء فكلهم طعن

عليه ثم قال لو أدرك سالما مولى أبي حنيفة حيا لما شككت فيه ، فقال فى ذلك شاعر العرب :

هذا صهيب أم كل مهاجر وعلا جميع قبائل الأنصار
لم يرض منهم واحداً لصلاتنا وهم الهداة وقادة الأخيار
هـذا ولو كان المـثرم سالم حيـا لنال خلافة الأمصار
ما زال هذى العجم تحي دوننا إن العريب لفى عمى وخسار

وقال بجير يعير العرب باختلافها فى النسب واستلحاقها للأدعياء :

زعمتم بأن لهند أولاد خندف وبينـكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة ناسل وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس أولاد واحد وصاروا سواء فى أصول العناصر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم وأولى بقربانا ملوك الأكاسر
أتطمع فى صهرى دعيا مجاهراً ولم تر ستراً من دعى مهاجر
وتشتم لؤما رهطـــه وقبيله وتمدح جهلا طاهراً وابن طاهر

وقد ذكرت هذا الشعر تاما فى كتاب النساء والأدعياء والنجباء ، وقال الحسن بن هانىء على مذهب الشعوبية :

وجاورت قوما ليس بينهم أواصر إلا دعوة وبطون
إذا ما دعا باسمى العريف أجبته إلى دعوة مما على يهون .
لأزد عمان بن المهلب نزوة إذا افتخر الأقوام ثم تلين
وبكر يرى أن النبوة أنزلت على مسمع فى البطن وهو جنين
وقالت تميم لا نرى أن واحداً كأحنفنا حتى الممات يكون
فلا لمت قيساً بعدها فى قتيبة إذا افتخروا إن الحديث شجون

« رد ابن قتيبة على الشعوبية . »

قال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فإن منهم قوما أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا إلى قوله عز وجل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقوله : إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، وإلى قول النبى عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، ليس لعربى على عجمى فخر إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله : المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . وإنما المعنى فى هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الأحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة ، لو كان الناس كلهم سواء فى أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة لم يكن فى الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول ، فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ، وقوله صلى الله عليه وسلم : أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى قيس ابن عاصم : هذا سيد الوبر ، وكانت العرب تقول لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا ، تقول لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار فإذا جملوا كلهم جملة واحدة هلكوا ، وإذا ذمت العرب قوما قالوا : سواسية كأسنان الحمار ، وكيف يستوى الناس فى فضائلهم ، والرجل الواحد لا تستوى فى نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس ، وقالوا القلب أمير الجسد ، ومن الأعضاء خادمة ومنها

مخدومة . قال ابن قتيبة : ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام وبقول النبي عليه الصلاة والسلام لا تفضلونى عليه فإنما أنا حسنة من حسناته ، ثم فخرهم بالأنبياء أجمعين وأنهم من العجم غير أربعة هود وصالح وإسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، واحتجوا بقول الله عز وجل : إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبرهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . ثم فخروا باسحاق بن إبرهيم وإنه لسارة وإن إسماعيل لأمة تسمى هاجر وقال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عكن بها طنبا ... ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا نهد بها وطن ... لكنها لبنى الأحرار أوطان
أرض تبنى بها كسرى مساكنه ... فما بها من بنى اللخناء إنسان

فبنو الأحرار عندهم العجم وبنو اللخناء عندهم العرب لأنهم من ولد هاجر وهى أمة ، وقد غلطوا فى هذا التأويل وليس كل أمة يقال لها اللخناء ، إنما اللخناء من الأماء الممتهنة فى رعى الإبل وسقيها وجمع الحطب وإنما أخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن السقاء إذا تغير ريحه ، فأما مثل هاجر التى طهرها الله من كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين إسماعيل ومحمد أما وجعلهما سلالة فهل يجوز للملحد فضلا عن مسلم أن يسميها لخناء .

رد الشعوبية على ابن قتيبة

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على ابن قتيبة فى تباين الناس وتفاضلهم والسيد منهم والمسود ، إننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ولكننا نزعم أن تفاضل

الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد هممهم ، ألا ترى أنه من كان دنىء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من بنى هاشم فى ذؤابتها ومن أمية فى أرومتها ومن قيس فى أشرف بطن منها إنما الكريم من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته ، وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وقوله فى قيس ابن عاصم هذا سيد أهل الوبر ، إنما قال فيه لسودده فى قومه بالذب عن حريمهم وبذله رفده لهم ، ألا ترى أن عامر بن الطفيل كان فى أشرف بطن فى قيس يقول :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل مركب
فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وقال آخر :

إنا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة لأقضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلى ولا يردها أحد بعدى : أيما رجل رمى رجلا بملامة دونها كرم فلا لؤم عليه وأيما رجل ادعى كرما دونه لؤم فلا كرم له ، ومثل قول عائشة أم المؤمنين . كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به ، تعنى بقولها إن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها فإذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته وإن لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته . وقال الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما
وجعلته ملكا هماما

وقال آخر :

مالى عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى ولا أنا عربى
إن انتمى منتم إلى أحد فاننى منتم إلى أدبى

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب فأعجب عبد الملك ما سمع منه فقال : ابن من أنت ياغلام قال ابن نفسى يا أمير المؤمنين التى نلت بها هذا المقعد منك ، قال : صدقت . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : حسب الرجل ماله وكرمه دينه . وقال عمر بن الخطاب : إن كان لك مال فلك حسب وإن كان لك دين فلك كرم . وما رأيت أعجب من ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب . إنه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض فى آخره كل ما بنى فى أوله . فقد قال فى آخر كلامه : وأعدل القول عندى أن الناس كلهم لأب وأم خلقوا من تراب وجروا فى مجرى البول وطرأ عليهم الأقذار فهذا نسبهم الأعلى الذى يردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء ، ثم إلى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب وتبطل الأحساب إلا من كان حسبه التقوى أو كانت ماتته طاعة الله (قالت) الشعوبية انما كانت العرب فى الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض فى غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث فكيف يدرى أحدهم من أبوه وقد فخر الفرزدق ببنى ضبعة حين يبتزون العيال فى حروبهم فى سبية سبوها من بنى عامر بن صعصعة :

فظلت وظلوا ايركبون هبيرها   وليس لهم إلا عواليها ستر

والهبير المطمئن من الأرض وانما أراد ههنا فرجها (وهو القائل فى بعض ما يفخر به).

ومنا التميمى الذى قام ايره   ثلاثين يوما ثم زادهم عشرا

(أنظر : ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٨٥ — ٩٠)

ملحق رقم (٤)

يقول جولدزيهر إنه من المحتمل جداً أن تكون الصلوات الخمس اليومية التى قررها محمد مترتبة على أثر فارسى . وقد قرر هوتسما قريبا جدا فى رسالة خاصة له أن محمدا فى بادىء الأمر فرض الصلاة مرتين فى اليوم فقط وبعد ذلك أضاف صلاة ثالثة هى الصلاة الوسطى . وبالاضافة إلى الأدلة التى ساقها هوتسما يوجد دليل آخر يمكن أن يعد من ضمن الأدلة : فالأعشى فى قصيدته التى مدح فيها محمداً يذكر وقتين من أوقات الصلاة فقط (بيت رقم ٢٢ - قابل أسد الغابة جـ ٥ ص ١٤٨ » وقد كانت صلاة العصر بعد تقريرها نهائيا فى حاجة إلى توصية خاصة . وكانت توجد طائفة من طوائف الخوارج تسمى الأطرفية لأن أتباعها كانوا يعترفون بواجب تأدية الصلاتين الأصليتين وهما صلاة الصبح وصلاة المساء فقط ويرفضون الصلوات الثلاث الأخرى من ناحية المبدأ .

والحق إن المسائل المتعلقة بعدد الصلوات وأوقاتها بقيت على ما نعلم فى المجتمع الاسلامى غير محققة زمناطويلا . واذا كانت اليهودية قد قلدت فى ما يختص بتقرير أوقات الصلوات الثلاثة المحددة فهلا نستطيع من جهة أخرى أن نفرض أن جعل الصلوات خمسة أخيراً بعد أن كانت ثلاثة فى اليوم حدث نتيجة للتأثر بالصلوات الخمس عند الفرس ، فانه يصعب على المسلمين أن يفوقهم الفرس فى عدد الصلوات .

Wellhausen, Proleg, Zur altesten geschichte Z. D. M. G., vol. LIII, pp. 385 —6. GoldZiher, vol I, pp. 33— 39. des Islams, p. 17

تعليقات خدابخش

---

(١) أضيف لفائدة القارىء الملاحظات الآتية عن فرق المرجئة والمعتزلة : —

يتضح أن فرقة المرجئة ظهرت قبل نهاية القرن الأول الهجرى من عبارة فى كتاب المعارف لابن قتيبة (ص ١٢٩) حيث يقال أن عتبة بن مسعود (+٩٨هـ = ٧١٦ — ١٧م) كان له ابن اعتنق فى شبابه (٨٠ — ١٠٠هـ) تعاليم المرجئة ولكنه رجع عنها فيما بعد . وطبقا لعبارة فى شرح الموطأ للزرقانى (جـ٣ ص ٢٤) يقال إن محمداً بن على أدخل تعاليم المرجئة ، وقد مات سنة ٨١هـ (٧٠٠م) . وطبقا لما ذكره الشهرستانى كان الحسن حفيد على أول المرجئة . ويتضح من عبارات الشهرستانى (جـ١ ص٢٦ — ٤٧) أن المرجئة كانوا قبل المعتزلة فى الزمن . وفيما يختص بالمعتزلة مات واصل مؤسسها كما هو معروف جيداً سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ — ٩م) ، وقد كان تلميذاً للحسن البصرى (+١١٠هـ = ٧٢٨ — ٢٩م) — انظر Von Kremer, Gesch. der hersch. Ideen d'Islam, p. 125.

وتقع فترة المعتزلة الذهبية بين سنة ١٠٠هـ وسنة ٢٢٥هـ (٧١٨ — ٨٤٩م) وقد كان الخليفة هشام عدواً لطائفة القدرية . Wellhausen, p. 217, Browne, p. 283. والطبرى السلسلة الثانية ص١٧٣٣ — ١٧٧٧ . وقد تبع الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك رأى غيلان بن مسلم الذى قتله هشام لاعتناقه رأى القدرية Frag. Hist. Arab.130. ، ومعظم سكان المزة (ياقوت جـ٤ ص ٥٢٢) الذين قدموا خضوعهم ليزيد بن الوليد سراً وثاروا ضد الوليد بن يزيد أو

الوليد الثانى اتبعوا رأى غيلان بن مسلم أو بمعنى آخر كانوا قدرية De Goeje, p. 135 مات واصل سنة ١٣١ هـ ومات العلاف سنة ٢٣٥هـ ، وكان النظام على قيد الحياة حوالى ٢٢٠هـ (٨٣٥م) . وظهر الجهمية أتباع جهم بن صفوان حوالى سنة ١٣٠ هـ (٧٤٧ — ٨م) والحائطية (راجع التعليق رقم ٢ من تعليقاتى المترجم) حوالى سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م) والجبائية حوالى سنة ٣٠٣هـ (٩١٥م) والبهشمية حوالى سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م) . وقد نزل أشد اضطهاد بالمعتزلة فى عهد الخليفة القادر المتعصب سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧ - ١٨م) حين طلب إليهم أن يتخلوا عن مبادئهم وأن يقسموا على استنكارها . ومع أن المعتزلة فقدوا نفوذهم السياسى بعد اعتلاء المتوكل الخليفة العباسى العاشر (٨٤٧م) مباشرة فإن الزمخشرى مفسر القرآن الشهير كان يمثل هذه المدرسه تمثيلا قويا بعد ذلك بما يقرب من ثلاثة قرون (Browne, p. 289 ، وقد أرغموا على أن يتبرأوا من مذهبهم كتابة ومن رفضوا منهم أن يفعلوا ذلك نزلت بهم أشد العقوبات الجسدية وقد اتبع هذا الطريق نفسه السلطان الغزنوى محمود بن سبكتكين حيال المعتزلة فى الأقاليم الخاضعة له . ولكن اضطهاداته لم تكن قاصرة عليهم بل كانت موجهة ضد جميع الطوائف سواء أكانوا معتزلة أو شيعة أو اسماعيلية أو قرامطة أو جهمية أو مشبهة . وقد قتلوا وصلبوا ونفوا (عيون التواريخ) . وفى السنة التالية قرىء أمر دينى فى قصر الخليفة القادر وسط احتفال كبير أعلن فيه أن كل من يقول إن القرآن مخلوق كافر وذلك بعكس العقيدة الصحيحة التى تقول بأن القرآن غير مخلوق . قد كان القادر متعصبا وبلغ من أمره أنه وقف موقف كاتب من الكتاب الدينيين وكتب كتابا فى الدفاع عن العقائد الدينية الصحيحه هاجم فيه المعتزلة بصفة خاصة ، وكان هذا

الـكتاب يقرأ علنا ويشرح كل يوم جمعة فى مسجد المهدى طوال حكم القادر أمام الطلبة الذين يدرسون الحديث . وفى سنة ٤٢٠ﻫ أمر الخليفة القادر بدعوة جميع القضاة والعلماء إلى القصر وقرىء لهم كتاب ألفه الخليفة نفسه وشرح فيه المبادىء الأساسية للدين الصحيح وفند آراء المعتزلة وما شابهها ، وفى العشرين من رمضان دعوا أيضا وأمر الخليفة بأن يقرأ عليهم كتاب آخر ألفه بنفسه وكان يتضمن تعليمات وأموراً تحضهم على تفنيد الـكفر الذى يؤكد أن القرآن مخلوق ، وبعد قراءته أمر الخليفة الحاضرين بأن يكتبوا أسماءهم عليه ؛ وفى الثانى عشر من ذى القعدة دعوا مرة ثالثة وقرئت عليهم وثيقة وأمروا بكتابة أسمائهم عليها وفضلا عن ذلك فقد عزل الخليفة جميع الأئمة الشيعة من المساجد وعين فى مكانهم من أهل السنة . للاستزادة من المعلومات انظر : Von Kremer, Gesch., d. herrsch. Ideen, p. 127, Browne, Lit. Hist of Persia

(راجع ص ١٩ من الـكتاب المترجم)

(٢) طبقا لما ورد فى أوثق المصادر مات أبو الدرداء سنة ٣١ﻫ أو سنة ٣٢ﻫ ولـكن البعض مع ذلك يقولون بأنه مات بعد موقعة صفين (الأصابة ج ٣ ص ٩٠) ويقال أنه اعتنق الاسلام يوم غزوة بدر وشاهد جميع الغزوات التالية وعندما عين معاوية واليا على الشام عين أبو الدرداء قاضياً على دمشق وظل فى هذا المنصب حتى وفاته .

(أنظر النووى ص ٧١٣ و ٨٥٩ والبلاذرى ص ١٤١ والمقدسى الطبعة الانجليزية p. 178 note, 3) — (أنظر هامش ١ ص ٢٣ من الـكتاب — المترجم .)

(٣) لم يستعص على بعض العلماء المسلمين أنفسهم أن يلاحظوا العادات والتقاليد غير الإسلامية التي انتشرت بين أتباع دينهم . وربما كان أكثر هؤلاء العلماء أهمية ابن تيمية . ويتناول كتابه المسمى « كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم » في المحل الأول العناصر غير الإسلامية التي توجد في دين إخوانه المسلمين . وهو كتاب عظيم القيمة يتكلم ابن تيمية في الأجزاء الأولى منه على العادات والتقاليد المسيحية التي تسربت إلى المسلمين الشاميين. ويقول شرينر Shreiner : « إن معالجته للموضوع تدل على قوة ملاحظة عجيبة لجميع مظاهر الحياة الدينية الإسلامية التي من أصل وثني . » (ص ٥٩ من كتاب شرينر) « ولا تقف أهمية الكتاب عند هذا الحد بل إن ابن تيمية فوق ذلك يتناول الكلام على عادة تقديس قبور الرسل والأولياء الذائعة بين المسلمين ويثبت بالإشارة إلى الحديث أن مثل هذه العادة تتعارض مع مبادىء الإسلام . ومفتاح الكتاب في العبارة الآتية : — يجب على الناس أن يتبعوا ما يبلغه الله لهم عن طريق رسوله . وإن النجاة في الدنيا والآخرة يترتب على ذلك . » (كتاب شرينر ص ٥٨) . وقد تطورت آراء ابن تيمية بوساطة الكتاب الذين جاءوا بعــــده ، ومن هؤلاء شمس الدين بن قيم الجوزية (٦٩١ — ٧٥١ هـ) . وقد كان تلميذاً من تلاميذ ابن تيمية حقيقة في كل رأى ، واضطهد حتى في حياة ابن تيمية نفسه وزج به في السجن لتحريمه الحج إلى حبرون . وقد حارب مثل أستاذه ابن تيميـة الفلاسفة والمسيحيين واليهود وقال بدوام الجزاء عن الأعمال الصالحة وبأن العقاب بإدخال النار مخلد (ص ٥٩ من كتاب شرينر) . وأهم مؤلفاته عن تاريخ الحركة الدينية هى النونية واسمه الكامل « كتاب الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية . »

ويبدأ بوصف الذين ينكرون على الله الصفات (المعطلة) والمشبهة والموحدة ، ثم يتبع ذلك بتاريخ الفرق الدينية الإسلامية و يتناول فيه بالبحث والتفنيد آراء فلاسفة مثل ابن سينا وابن سبعين والأشعريين وطوائف مثل القرامطة .

وشمس الدين ابن قيماز التركمانى الذهبي (ولد سنة ٦٧٣هـ ومات سنة ٧٤٨هـ) تلميذ آخر من تلاميذ ابن تيمية ، وهو معارض لا يلين للصوفية ونظريتهم القائلة باتحاد الله مع العالم وقليل الرضاء عن الغزالى وفخر الدين الرازى وعن ابن العبرى أيضا ، وحتى الجوينى إمام الحرمين لا ينال رضاه . وفضلا عن المؤلفات الخاصة بالسير والتاريخ كتب الذهبي مؤلفات دينية خالصة مثل (١) كتاب العرش (٢) اختصار كتاب البيهقى . وقد جمع فى مؤلفاته المذكورة أحاديث وأقوال لعلماء أتقياء تشير إلى وجود الله حتى قبل خلق العالم . ويذكر الألوسى عدداً من الكتاب الذين ساروا قدماً بآراء ابن تيمية (كتاب شرينر ص ٦٠ — ٦١) وفوق ذلك فإن الألوسى يذكر مشكلة عليها خلاف بين علماء الدين المسلمين ولها بعض الأهمية فى نظرنا وهى هل من الجائز التوسل بشفاعة الرسل وبخاصة محمد أو التماس معونتهم بوجه عام ؟ ويقول مؤلفنا إن الكثيرين أجابوا على هذا السؤال بالإيجاب ولكن لم ينعدم أبداً منذ أقدم العهود وجود رجال كانوا ينظرون إلى مثل هذا التوسل نظرتهم إلى جريمة ضد التوحيد الصحيح ومن هنا حرموه ، وقد كان ابن تيمية يرى هذا الرأى .

ويقول شرينر إننا لا يمكن أن ننكر أن الحركة العظيمة التى بدأت بابن تيميه والتى عبرت تعبيراً قويا عن اتجاهات الإسلام تمثل دوراً هاماً

من أدوار اعتزاز الإسلام بنفسه أمام الأخطار الكثيرة الداخلية والخارجية التى كانت تهدد كيانه فى القرن الثالث عشر الميلادى . فقد شلت الحروب الصليبية وأكثر منها غارة التتار قوة المسلمين وزعزعت ثقتهم بأنفسهم ولم تكن تعاليم الأشعرى تستطيع أن تفيد الناس كثيراً . وكان لمذهب الفلاسفة فى وحدة الوجود أثره دائما فى إضعاف أخلاق الناس الذين اتخذوه عقيدة لهم . وكانت عادة تقديس الأولياء تنازع تعاليم محمد (كذا) باستمرار فى العالم الإسلامى . » وعلى ذلك فلظهور ابن تيمية وتلاميذه وحركة التوحيد الرجعية التى كانوا حملتها قيمة كبيرة من الناحية التاريخية .

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن ابن تيمية وأصحابه كانوا رجالا أكفاء نشطين وضحوا معتقداتهم بشجاعة وبطريقة سليمة قوامها الأفكار العميقة . ومع ذلك فان تعاليمهم لم تحز أبدا القبول العام » .

هذه الملحوظة مأخوذة عن كتاب شرينر Shreiner المسمى Beitr. Z. Gesh. d. theol. Bewegungen im Islam. Z. D. M. G. 1899, pp. 51—67.

(راجع ص ٢٣ من الكتاب — المترجم)

(٤) مات ابن مَسَجِّح فى عهد الوليد الأول أى بين سنتى ٨٦ و٩٦هـ . ويبدو أن طويس ذاع اسمه بصفة موسيقى حتى قبل ابن مسجح ، وقد ولد يوم وفاة محمد (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) وفطم يوم وفاة أبى بكر وختن يوم مقتل عمر وتزوج يوم قتل عثمان وولد له ولد يوم قتل على ، وهذه المصادفات العجيبة كانت الأصل فى المثل الشائع بين العرب وهو « أشأم من طويس » . وقد بدأت شهرته فى السنوات الأخيرة من خلافة عثمان (ابن بدرون ص ٦٤)

وكان طويس أول من غنى بصوت جميل وخفة منذ مجىء الاسلام ، وإليه يرجع الفضل فى سماع الألحان المرتبة فى المدينة . وقد مات فى السويداء فى بدء خلافة الوليد حوالى سنة ٨٦ أو سنة ٨٧ هـ (٧٠٥—٦ م) . ويذكر بين الموسيقيين الآخرين فى هذا الزمن عزة الميلاء وسائب خاثر . وقد عاشت عزة الميلاء فى المدينة وذاعت شهرتها إلى حد أن المسلمين الأتقياء أقلقهم تفشى حب الموسيقى واشتكوا إلى سعيد بن العاص حاكم المدينة من قبل الخليفة معاوية واتهموا عزة بأنها أفسدت المؤمنين بالموسيقى التى حرمها النبى. وقد عاش سائب خاثر فى المدينة وكان أبوه أسير حرب فارسى اشترته قبيلة ليث ، ويقال إنه أول من غنى فى المدينة على العود . وقد قتل أثناء المذابح التى تبعت دخول المسلمين القساة إلى المدينة فى عهد يزيد . وقد تلقى مسلم ابن محرز دروسه الأولى فى الغناء على ابن مسجح ، وبعد ذلك غادر مكة وتنقل فى فارس وسورية ، ويقول مؤلف كتاب الأغانى ان ابن محرز تعلم ألحان وأغانى الفرس وأهل الشام ولفظ منها مالا يستسيغه مواطنوه واستبقى ما يحبون وبعد ذلك ضم بعضها إلى بعض ، ومن هذا الخليط استنبط الألحان التى وضعها للأشعار العربية . ويقول كوسان دى پرسيڤال إنه يظهر أن ابن مسجح لم يضع وحده نظام الموسيقى العربية التى ذاعت فى القرون الأولى للهجرة ولكن ابن محرز كان له أيضا نصيب فيها أو على كل حال هو الذى ثبت وأقر قواعدها وكان أيضا هو مخترع الرمل. وكان ابن محرز أول من غنى الأشعار العربية كل بيتين معا ، وكان فى هذا مثلا احتذاه كل زملائه ، وكان يقول إنك لا تستطيع أن تغنى لحنا كاملا على بيت واحد . وكان ابن سريج أول من غنى على العود فى مكة

[Caussin de Perceval, J. A., November-

December, 1873, p. 460] . وكان اسحق الموصلى أكبر الموسيقيين فى زمن العباسيين يقول « أربعة من الرجال نبغوا فيما مضى فى فن الغناء اثنان مكيان هما ابن محرز وابن سريج واثنان مدنيان وهما معبد ومالك » . [Ibid., p. 500] (راجع ص ٢٥ من الكتاب — المترجم) .

(٥) يعتبر ابن حزم المعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج أهم الفرق الاسلامية ، ويذكر بعد ذلك فى كتابه الملل والنحل الطوائف التى تعتبر مسلمة ولكنه ينكر عليها هذه الصفة ومنها من يعتقدون فى تناسخ الأرواح ومن ينكرون أن سورة يوسف من القرآن ومن يحلون استعمال شحم الخنزير ، ويذكر لنا أن من بين الشيعة كثيرين يؤكدون بشدة أن عليا والأئمة الذين جاءوا بعده آلهة وغيرهم يعتبرون عليا والأئمة أنبياء ويعتقدون فى تناسخ الأرواح ومنهم الشاعر السيد الحميرى. ويخبرنا بعد ذلك أن كثيرين من هؤلاء الشيعة يعتبرون أبا الخطاب محمد بن زينب إلها وغيرهم اعتقدوا فى نبوة المغيرة بن أبى سعيد وأبى منصور العجلى وبَزِ غَ الحائق وبنان بن سمعان التيمى وغيرهم ، ويرجع بن حزم أصل هذه الفرق وما شابهها إلى الفرس الذين اعتنقوا الاسلام وموالاة البيت النبوى فى الظاهر ولكنهم كانوا يسعون فى الحقيقة للثأر من الاسلام الذى قضى على قوتهم وذلك بإدخال عقائد وآراء قصد بها أن تبعد الناس عن الاسلام وتلطخ سمعة الصحابة. ويختم ابن حزم كلامه عن هذا الموضوع بقوله « واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سر تحته كله برهان لا مسامحة فيه . واتهموا كل من يدعوا أن يتبع بلا برهان وكل من ادعى للديانة سرا أو باطنا فهى دعاوى ومخارق . واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة

فما فوقها ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة لكتمه عن الأحمر والاسود ورعاة الغنم ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعى الناس كلهم إليه ولو كتمهم شيئا لما بلغ كما أمر » . (ابن حزم — الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١١٦ طبعة مصر — المترجم) ومما يستحق الذكر أن ابن السبكى هاجم الملل والنحل لابن حزم بعبارات صارمة وهو يقول إنه من أسوأ الكتب وان العلماء الورعين حرموا دراسته دائما — انظر Z.D.M.G. vol. LII, pp. 465-468. (راجع ص ٣٥ من الكتاب - المترجم)

(٦) توجد فى ابن حزم (المخطوطة) فى ص ٩٠ ا العبارة الآتية : « ومنهم ضرار بن عمرو المتلهم أحد شيوخ المعتزلة . وكالت (كذا وربما هى كانت) فيه ثلاثة أعاجيب كان معتزليا كوفيا وكان عربيا شعوبيا وزوج ابنته من علج أسلم وكان يختلف إليه » . فهذه العبارة توضح ثلاثة حقائق هامة (أولا) تبين أن الكوفة لم تكن مكانا تروج فيه مبادىء المعتزلة (ثانيا) أنه حتى زمن ابن حزم كان يعتبر عجيبا أن يكون العربى شعوبيا (وأخيراً) أن زواج المرأة العربية من مسلم غير عربى كان يعتبر حتى زمن ابن حزم أمراً عجيبا . (راجع ص ٤٣ من الكتاب — المترجم)

(٧) نستطيع أن نكون رأيا عن الترف فى عهد العباسيين مما يقوله القاضى أحمد بن كامل صاحب أبى جعفر الطبرى عن خالد بن يزيد بن مزيد (من أسرة مشهورة من القواد) فان القاضى أحمد يقول إن بيته بيع فى عهد المطيع عندما ساءت أيام بغداد والخلافة بعشرة آلاف درهم . ويلاحظ أنه لو كانت المسامير وحدها التى استعملت فى ذلك المنزل هى التى بيعت بهذا المبلغ

لعدت الصفقة خاسرة مثل بيع البضائع المسروقة فإنه كان فى هذا البناء مسجد كبير يؤدى فيه الصلاة الخدم والأتباع وكان فى مبانيه أكثر من مائة بئر (ابن حزم : جمهرة النسب ص ١١٢ ا [السطر الأخير] من مخطوطة فى مكتبة خدابخش الشرقية العامة فى بنكيور . وهذه المخطوطة القيمة مرشد لا غنى عنه لكتاب الاشتقاق لابن دريد) (راجع ص ٤٩ من الكتاب — المترجم)

(٨) عند ما فر نصر (حاكم خراسان الأموى) على أثر وصول الأخبار بتقدم قحطبة ذهب إلى نباتة (وهذا الرجل أرسله حاكم العراق بامداداته لنصر) وكان حينئذ فى جرجان وانضم إليه بقواته . وقد سار قحطبة ضده وكان ابنه الحسن على المقدمة . وعند ما علم نصر ونباته بتقدم قحطبة نحو جرجان حفروا خندقا حول المدينة ، وعند وصول قحطبة أقام معسكراته أمامهم ولكن أتباعه عند ما رأوا حسن اعداد الشوام خافوا وتكلموا فيما بينهم عن هذا الأمر ولما عرف قحطبة بهذا وقف وخطب جنوده قائلا « يا أهل خراسان إن هذه البلاد كانت لآبائكم الاولين وكانوا ينصرون على أعدائهم بعدلهم وحسن سيرتهم فلما بدلوا وظلموا سخط الله عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة يعنى العرب فغلبوهم على بلادهم ونكحوا نساءهم واسترقوا أولادهم وقتلوا آباءهم ، وكانوا على ذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم ثم غيروا وجاروا فى الحكم وأخافو أهل الدين من عترة الرسول فسلطكم الله عليهم » وقال فى آخر خطبته « ياقوم استنصروا فانكم تقاتلون قوما حرقوا بيت الله » . وقد أدخل هذا الكلام الشجاعة فى قلوبهم وقوى روحهم De Goege, Frag. Hist. Arab., pp. 192-193

(راجع ص ٤٩ من الكتاب — المترجم)

(٩) مما يستحق الذكر فى هذا المقام العبارة التالية المأخوذة من كتاب الحج إلى المدينة ومكة لسير رتشارد برتون ج ٢ ص٣٠١ و ٣٩٢ وهى « يذكر ولفورد Wilfrd (As Soc. vols. III, IV) أن الهندوس يقولون إن الحجر الأسود فى مكة (ذكرت Mokshesha و Mokshasthana) كان صنما الشيوه Shiva الذى زار الحجاز مع زوجته ، ولما بنيت الكعبة وضع هذا الأثر فى الحائط الخارجى احتقارا له ولكن الناس بقوا يحترمونه ، وفى كتاب دبستان يقال إن الحجر الأسود صنم كيوان Kaywan أو زحل ، ويقول الشهرستانى أيضا إن البيت الحرام خصص لكوكب زحل نفسه الذى يصور فى الكتب الهندية المقدسة Puranas بصورة الوحش البشع ذى الأذرع الأربعة الذى يلبس فروا أسود اللون وعمامة سوداء . ويجمع المؤرخون المسلمون على التأكيد بأن ساسان ابن بابكان وملوك فارس الآخرين أهدوا للكعبة هدايا فخمة وهم يذكرون بصفة خاصة هلالين من الذهب من بين الهدايا الهامة . ويؤكد المجوس أن الحجر الأسود كان بين الأوثان والآثار التى خلفها مهبد Mahbad وخلفاؤه فى الكعبة بصفة شعار لزحل ، وهم يسمون المدينة أيضا مهجه Mahgah ومعناها مكان القمر من تمثال جميل جدا للقمر ويقولون إن العرب أخذوا عنه اسم مكة . والصابئة يحترمون الكعبة أيضا والأهرام ويؤكدون أنها قبور شيث Seth ونوح Enoch (أو Hermes) وصابىء Sabi ابن نوح . وعلى ذلك فمكة تعتبر مكانا مقدسا والحجر الأسود والكعبة أيضا تحترم وتعتبر مشاعر مقدسة عند أربعة أديان هى أديان الهندوس والصابئة والمجوس والمسلمين . (راجع الكتاب ص ٥٦ — المترجم) .

(١٠) مات عروة سنة ٩٤ هـ التى تسمى « عام الفقهاء » لموت عدد كبير

من الفقهاء فيها De Goeje, Frag. Hist. Arab., vol.I, p. 8 . وهناك ما يؤكد هذه الحقيقة فى ابن حزم المخطوطة ص ١٨٤ سطر ٣ وهذا نصه « كان عياض بن حمار صديقا للنبى فى أيام الجاهلية ، وحراميه . والحرامى كان الشخص الذى له صديق فى قريش ومن عادته أن يطوف حول الكعبة مرتديا ملابسه أما الذين لم يكن لهم أصدقاء من بين القرشيين فكانوا يطوفون عراة . وتختلف الآراء فى اشتقاق كلمة قريش فطبقا للبعض كان قريش بن بدر أو قريش بن يخلد يقود قافلة كنانة فى الرحلات التجارية وكان الناس يقولون لقد وصلت جمال قريش حتى قيل إن القبيلة كلها سميت لهذا على اسمه ، وطبقا لآخرين سميت القبيلة بهذا الاسم لأنه كان يجمع السلع للبيع من جميع الجهات (تقرش) . وهناك رأى آخر يقول بأن قصى سمى أولا قريش بالأضافة إلى لقبه الآخر وهو « المجمع » لأنه جمع أبناء قبيلته لتقوية حكمه فى مكة التى انتزعها من القبائل اليمنية حتى أن اسم قريش يطلق أيضا على فهر لأن جميع القبائل العربية التى يرجع نسبها إلى فهر تعد من قريش . ويميز المسعودى من بطون هذه القبيلة المختلفة خمسا وعشرين بطنا يعد منها خمس عشرة أرستقراطية كانت تسكن الجزء الأساسى من مكة — البطاح — حيث توجد الكعبة من الردم إلى الحطى إلى اليمين حتى تخرج عنه الصفا . وكان رؤساء هذه البطون الخمس عشرة هم : هاشم بن عبد مناف — المطلب بن عبد مناف — الحارث بن عبد المطلب — أمية بن عبد شمس — نوفل بن عبد مناف — الحارث بن فهر — أسد بن عبد العزى — عبد الدار بن قصى — زهرة بن كلاب — تيم بن مرة — مخزوم — يقظة بن مرة — عدى بن كعب — سهم — جمح — والعشرة الأدنى منزلة كانوا هم الذين يسكنون الجزء من المدينة الواقع على

مرتفع فى منطقة الظواهر وهم : مالك بن حسل — معيص بن عامر — منقذ ابن عامر — نزار بن عامر — سامة بن لؤى — تيم الأدرم — محارب بن فهر — الحارث بن عبد الله بن كنانة — عائذة وهو خزيمة ابن لؤى ونبتاى أو سعد بن لؤى Wüstenfeld. Geneal. Tabellen, pp. 139-40 (راجع الكتاب ص ٥٧) .

(١١) لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة (انظر 7—136 Krehl, Moh. pp.) وجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا هو اليوم الذى أظفر الله فيه موسى وبنى اسرائيل على فرعون ونحن نصومه تعظيما له . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن أولى بموسى منكم وأمر بصومه — البخارى ج ٣ ص ٥١ — ٥٢

(راجع الكتاب ص ٥٧ — المترجم)

(١٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٥ والشعبى : الفاروق ص ٢٧٧ ج ٢ . كان العرب يقصدون بالسواد جميع المنطقة الممتدة من حدود الصحراء السورية الجنوبية الشرقية عند عذيب والقادسية إلى سلاسل جبال حلوان وهى جبال زجروس Zagros القديمة ، وحين يمتد السواد عرضا من الشرق إلى الغرب من عبادان على الخليج الفارسى وطولا من الشمال إلى الجنوب متضمنا المنطقة الواصلة حتى قرب الموصل يشمل لا بابل وكلدايا فحسب بل يشمل أيضا أجزاء من الجزيرة وبلاد آشور . ولما كان ريه من الفرات ودجله فإنه كان منذ أقدم العصور من أخصب وأقدس بلاد اسيا وأكثرها سكانا ، وكان يوجد طريق من أكثر الطرق التجارية حركة يوصل فارس من هنا ومن سورية وآسيا الصغرى إلى البحر ومنه كانت تقوم حركه نشطة جدا

لتبادل السلع بحرا من Apollogos وهو الأبلة عند الجغرافيين العرب مع آسيا الخلفية والهند وكذلك بلاد العرب الشرقية وساحل إفريقية الشرقى والبلاد الواقعة على البحر Von Kremer Culturgeschichte des Orient vol. I. p. 72 وأنظر عن الأبلة Ranke, Weltgeschichte, vol. V,p.128 وعن عذيب أنظر Muir's Caliphate, p. 132. Sprenger, Die post-und De Goeje, Zur Historischen Reiserouten DesOrients, p. 112. Geographie Babybniens, Z.D.H. G,XXXIX.p.1,

(راجع ص ٨١ من الكتاب — المترجم)

(١٣) كان على غير المسلم بجانب ضريبة الرأس أن يقدم الميرة والملابس للجنود طبقا للنظام الآتى الذى وضعه عمر : « على أهل العراق أن يدفعوا نوعا لكل مسلم خمسة عشر صاعا من القمح وكمية معينة من الزبد المسلى ، وعلى المصريين أن يدفعوا شهريا أردبا من القمح وكمية من الزبد والعسل وبالأضافة إلى هذا كمية معينة من نسيج الكتان لملابس الجنود وأخيرا عليهم أن يضيفوا كل مسلم ثلاثة أيام ، وعلى أهل الشام أن يدفعوا شهريا مدين من القمح وثلاثة أقساط من الزيت وكذلك زبدا وعسلا . » Von Kremer, Culturgecshichte des Grients. vol. I. p. 61. على أنه يجب أن يقر فى الأذهان كما يقول مستر أرنولد فى كتابه « الدعوة الإسلامية » أن الجزية كانت تفرض على الأقوياء من الذكور فى مقابل الخدمة العسكرية التى كان يمكن أن يدعوا للقيام بها إذا كانوا مسلمين ، ويلاحظ جيدا أنه عندما كان يخدم جماعة من النصارى فى الجيش الاسلامى كانوا يعفون من دفع هذه الضريبة ، وقد كان هذا هو الحال مع قبيلة الجراجمة وهى قبيلة مسيحية بجوار أنطاكية صالحت المسلمين ووعدت بأن تكون حليفة لهم وأن تحارب إلى

جانبهم فى المعركة على شريطة ألا يطلب إليها أن تدفع الجزية وأن تأخذ نصيبها فى الغنائم (أنظر أبو يوسف ص ٨١ والبلاذرى ص ١٥٩) وعندما وصلت الفتوح الإسلامية إلى شمال الشام سنة ٢٢ هـ عقد اتفاق مشابه لهذا مع قبيلة من قبائل الحدود فأعفيت من دفع الجزية فى مقابل الخدمة العسكرية الطبرى — السلسلة الأولى ص٢٦٦٥ و Arnold. p. 56 (راجع ص ٨٣ من الكتاب — المترجم).

(١٤) كانت العلاقة بين الحامى والمحمى تقوم على عهد مقدس ويمين حتى أن الجار يسمى أيضا حليف أو حلف ، وربما اختلفت طبيعة العهد ولكن فى الغالب كان العهد يجعل الطريد ابنا للحامى ويعطيه جميع الحقوق والواجبات المفروضة على رجـــل القبيلة — أنظر : Robertson Smith, Kinship & Marriage p, 53 وكان الفرق فقط فى أن الدية التى كانت تدفع عن التابع لم تكن قدر دية الصريح (العربى الأصيل) ، وفضلا عن ذلك فإن الحليف فى المدينة كان له حق وراثة حاميه ، وطبقا لأقوال المفسرين للسورة رقم ٤ آية رقم ٢٧ اخذ حليف لأحد الأشخاص سدس ممتلكاته Ibid. p.55
(راجع ص ٨٦ من الكتاب — المترجم)

(١٥) يبدو أن شرب النبيذ لم يكن محرما قبل غزوة أحد حتى أنه يقال إن النبى شرب النبيذ فى طريقه من المدينة إلى أحد — طبقات ابن سعد ج ٣ ص٦٣ ، وكان النبيذ شراب عمر الأول المحبوب — المصدر نفسه ص ٢٣٠ و ٢٤٤ . وكان تحريم شرب الخمر الذى فرضه الاسلام من أشد الأمور كراهية عند العرب Goldziher Muh. Studien. pp. 22-23 . ويذكر جولدزيهر ص ٢٣ هامش ٢ أنه يمكننا أن نلاحظ أن موجة الاحتجاج ضد تحريم الخمر

ظلت قائمة من تداول بعض الأحاديث التي يمكن الاستفادة منها فى الدفاع عن عادة شرب الخمر حتى القرن الثالث الهجرى ، وقد طلب إلى المزنى (مات سنة ٢٠٤ هـ) العالم الدينى أن يشرح الأسباب التى تدعو إلى الشك وعدم الثقة فى الأحاديث التى تبيح شرب الخمر — ابن خلكان رقم ٩٢ ج ١ ص ١٩٦ كما أن العقد الفريد جمع عدداً كبيرا من الأحاديث التى تبيح وتؤكد الشرب بقدر قليل ج٣ ص٤٠٩ — ٤١٩ والحقيقة ان شرب نبيذ البلح أبيح فى زمن متقدم جداً
Khuda Buklhsh,Arabs before Islam. انظر Z. D. M. Gvol. VLI; p. 95.
(راجع ص ٩٢ من الكتاب) .

(١٦) يذكر الجوزى فى كتابه مرآة الزمان أسباب تحريم الخمر فى الاسلام — المخطوطة مكتبة خدابخش الشرقية ص ٤٧ ا و ب ويذكر فى ص ٤٨ ا قائمة بأسماء الذين حرموا شرب الخمر فى الجاهلية . وفى ص ٦٧ ا توجد العبارة الآتية : « انطلق عثمن بن مطعون (كذا) وعبيدة ابن الحرث وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الاسلام فأسلموا فى ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم وهاجر عمن (لعلها عثمن) إلى الحبشة الهجرتين وحرم الخمر فى الجاهلية وقال لا أشرب شيئاً يذهب عقلى ويضحك بى من هو أدلى (ربما أدنى منى) ويحملنى أن أنكح كريمتى من لا أريد — فنزل تحريم الخمر فى سورة المائدة » .. عن الجوزى انظر ابن خلكان ج ٤ ص ٢٤٤ و ج ١ ص ٤٣٩ هامش ١٢ — ولا يتفق مع هذا مسلك محمد بن الحسن أحد أبناء على وعنه يقول ابن حزم (مخطوطة مكتبة خدابخش) ص ١٧ ب . « وكان من أفسق الناس يشرب الخمر علانية فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم نهاراً وفسق فيه

بقينة لبعض اهل المدينة » . وفيما يختص بأنواع الخمر المستعملة فى زمن الأمويين انظر : De Goeje Frag. Hist. Arab. p. 126. وطريقة شرب الوليد الثانى الخمر ص ١٢٩ (راجع ص ٩٣ من الكتاب) .

(١٧) يظهر أن الخلفاء الأمويين استعملوا أيضا القلنسوة فى الاحتفالات العامة و نعنى بذلك الوليد بن عبد الملك راجع De Goeje, Frag. Hist. Arab. vol. I, p. 7 وابن حزم مخطوطة مكتبة خدابخش الشرقية ببنكيور توجد فى ص ١٠٧ هذه العبارة : « ومن بنى الدول هوزة بن على توجه كسرى » . ويقول ابن دريد كان هوذة يسمى ذا التاج لأن كسرى أعطاه قلنسوة مذهبة ص ٢٠٩ قابل العقد الفريد ص ٦٧ ج ٢ ، ويبدو أن القلنسوة لم تكن غير معروفة للعرب حتى فى أيام الجاهلية .

(راجع ص ٩٩ من الكتاب — المترجم) .

(١٨) يقول الأستاذ براون إن التفسير العادى هو أن كلمة زنديق صفة فارسية معناها « مصدق بالزند Zand مفضل إياه على الكتاب المقدس وقد سمى المانوية زنادقة بسبب ميلهم إلى تفسير نصوص دينهم وتوضيحها طبقا لمبادئهم بطريقة قريبة من طريقة التأويل التى كانت شائعة بين الإسماعيلية المتأخرين » p, 56 — ويذكر صاحب الفهرست كشفا طويلا بأسماء من كانوا مانوية فى الحقيقة وإن اعتنقوا الإسلام فى الظاهر ويشمل الجعد بن درهم الذى قتله الخليفة الأموى هشام (٧٢٤ - ٧٤٣) والشاعر بشار بن برد الذى قتل سنة ٧٨٤ وجميع البرامكة تقريبا والخليفة المأمون ولكن المؤلف لا يصدق هذا ومحمد بن الزيات وزير المعتصم الذى قتل سنة ٨٤٧ وغيرهم .

Browne, p. 164 (راجع ص ١٠٢ من الكتاب — المترجم)

(١٩) يقول الأستاذ براون أن الطبرى ذكر اضطهاد الزنادقة فى عهد المهدى (٧٨٠ و ٧٨٢) والهادى (٧٨٦ - ٧) وفى عهد هارون الرشيد عين موظف خاص للكشف عن المانوية وعقابهم (هو صاحب الزنادقة) ولم يكن من بين الزنادقة الفرس وغيرهم من الأجانب فحسب بل كان فى عدادهم أيضاً عرب خلص من أمثال الشعراء صالح بن عبدالقدوس ومطيع بن إياس . وفى عهد المأمون كان مصير الزنادقة أقل قسوة p. 307 . قارن بهذا سياسة عمر وعثمان اللينة المعتدلة Von Kremer, Culturgeschichte des Orients, vol. i, p. 59. أنظر ورقة Huart القيمة وعنوانها : "Les Zindiqs en droit Musulman" فى Actes du Onziéme Congrés International des Orientalistes pp. 69 — 80.

(راجع ص ١٠٢ من الكتاب — المترجم)

تعليقات المترجم

١ – البرسيه هى دين البرسيين ، وهم فى اللغة الفارسية پارسيان (مفردها پارسى) ومعناها عباد النار (Johnson, Persian & Arabic & English Dictionary) ويطلق اسم البرسين (Parsis) الآن على الإيرانيين أتباع دين زرادشت الذين رفضوا اعتناق الإسلام بعد الفتح العربى وبقى بعضهم فى إيران وفر بعضهم منها ووصلوا فى أواخر القرن الثامن الميلادى إلى الهند وأقاموا فى منطقة جچرات ولا تزال لهم فيها حتى الآن طائفة جنسية ودينية عددها أكثر من مائة ألف نسمة . وبمباى الآن المركز الرئيسى للمجتمع البرسى فى الهند وهو مجتمع يراعى بكل دقة المبادىء الأخلاقية الزرادشتية وتحتل الطبقة الدينية فيه مركزاً سامياً . وأهم قواعد هذا الدين محاربة الرذيلة ، والأمانة فى تأدية الأعمال ومساعدة الفقراء والمحتاجين . انظر لفظ Far sis. فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية) [أنظر ص ١٨ من الكتاب] .

٢ – الحائطية هم أصحاب أحمد بن حائط – الشهرستانى ج ١ ص ٧٦ (أنظر تعليق رقم ١ من تعليقات خدابخش) .

٣ – جاء فى انجيل يوحنا (الإصحاح الثانى ١ – ١١) « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك ودعى أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس ، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر – قال لها يسوع : مالى ولك يا امرأة ، لم تأت ساعتى بعد . قالت أمه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ، وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة . قال لهم يسوع : املأوا الأجران

ماء فملأوها إلى فوق ، ثم قال لهم : استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ — فقدموا فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هى لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا — دعا رئيس المتكأ العريس وقال : كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولا ومتى سكروا فحينئذ الدون ، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن . هذه بداية الآيات فعلها يسوع فى قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه » .

(أنظر ص ٢٠ من الكتاب — المترجم) :

٤ — جاء فى أنجيل متى (الاصحاح الثانى والعشرين رقم ٢١) عن يسوع « فقال لهم لمن هذ الصور والكتابة قالوا له لقيصر فقال لهم أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله .)

(أنظر ص ٢١ من الكتاب — المترجم)

٥ — جاء عن المسيح فى أنجيل متى (الإصحاح التاسع ٢-٧) فدخل السفينة واجتاز وجاء إلى مدينته ، وإذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحا على فراش فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج : ثق يا بنى مغفورة لك خطاياك . وإذا قوم من الكتبة قد قالوا فى أنفسهم : هذا يجدف . فعلم يسوع أفكارهم فقال : لماذا تفكرون بالشر فى قلوبكم أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أو أن يقال قم وامش ولكن لكى تعلموا بأن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا حينئذ قال للمفلوج : قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك ، فقام ومضى إلى بيته : »

(أنظر ص ٢٢ من الكتاب — المترجم)

٦ — جاء فى أنجيل متى (الإصحاح الخامس رقم ٣) « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات » .

(أنظر ص ٢٢ من الكتاب — المترجم) .

٧ — جاء فى أنجيل متى (الإصحاح العاشر رقم ١٦) « ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . »

(أنظر ص ٢٢ من الكتاب — المترجم) .

٨ — السورة الرابعة هى سورة النساء والآية التى وردت بها كلمة شهيد هى: وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً . » ، والسورة التاسعة والثلاثون هى سورة الزمر والآية ٦٩ هى : « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . » ، والسورة السابعة والخمسون هى سورة الحديد والآية رقم ١٩ هى « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم . » (أنظر ص ٢٣ من الكتاب — المترجم) .

٩ — جاء فى انجيل متى (الاصحاح السابع رقم ٥) « يامراءى أخرج أولا الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك . »

(أنظر ص ٢٤ من الكتاب — المترجم) .

١٠ — جاء فى انجيل متى (الاصحاح الخامس رقم ١٣) « أنتم ملح الأرض ولكن ان فسد الملح فبماذا يملح . » (أنظر ص ٢٤ من الكتاب) .

١١ — جاء فى انجيل متى (الاصحاح السابع رقم ٦) « لا تطرحوا درركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم . » (أنظر ص ٢٤ من الكتاب) .

١٢ — جاء فى انجيل متى (الاصحاح السادس عشر رقم ٢٤) أن يسوع قال

لتلاميذه « إن أراد أحد أن يأتى وراءى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها . » (راجع ص ٢٤ من الكتاب) .

١٣ — رجاء بن حيوة هو أبو القاسم رجاء بن حيوة بن جرول الكندى وقد كان من العلماء الكبار ، وكان يجالس عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ، وكان لديهم محترما مسموع الكلمة ، وكانت وفاته سنة اثنتى عشرة ومائة — ابن خلكان — وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ — طبعة باريس سنة ١٨٣٨ . (راجع ص ٤٥ من الكتاب) .

١٤ — حركة تحطيم الأصنام Iconoclasm من أهم الحركات التى ظهرت فى تاريخ الكنيسة الشرقية وكانت ترمى إلى إيقاف عبادة التماثيل والايقونات ، وكان بدء ظهور هذه الحركة من عهد ليو الأيزورى (+ ٧٤٠ م) الذى اعتلى عرش الأمبراطورية البيزنطية بعد انتصار كبير على المسلمين واستغل ثقة رجال الجيش بشخصه بسبب هذا الإنتصار ليقوم بحركة شاملة يقصد بها تطهير الدين من الخرافات والأساطير التى كانت تحيط بعبادة التماثيل والايقونات . وقد لقى مقاومة شديدة من جمهور الشعب ومن رجال الدين وبخاصة من الرهبان واستعمل كل طرق العسف والشدة فى سبيل تنفيذ أغراضه وتعرض لكثير من الإهانات بسبب ذلك واتهم بممالأة اليهود بل وبأنه اعتنق الإسلام سرا على يد يزيد بن عبد الملك الخليفة الأموى وبدا تاريخه ملطخا مع أن عهده كان بدء فترة من فترات القوة فى تاريخ الدولة البيزنطية بعد عهد ضعف واضمحلال وقد حكم بعد ليو عدد من أبنائه وأحفاده وساروا جميعا قدما بهذه الحركة وأخذوا ينفذون رغبته بل واعتبروا عبادة التماثيل

كفرا وحاربوها على هذا الأساس بعد أن كان ليو يحاربها على أنها خرافة . وقد ظلت هذه الحركة قائمة حتى أوقفتها الأمبراطورة أيرينى آخر من حكم من أفراد هذا البيت ، وبذلك ظلت هذه الحركة قائمة فى هذه المرة نحو خمسين سنة . وقد قامت حركة محاربة عبادة التماثيل مرة أخرى بارتقاء ليو الأرمنى عرش الدولة البيزنطية (٨١٣ — ٨٢٠ م) وظلت قائمة فى هذه المرة الثانية أكثر من ثلاثين سنة (أنظر : Bury, Hist. of the Eastern Rom. Empire, pp. 56 Oman, the Byzantine Empire, pp. 189 - 202, & seq., راجع ص ٢٩ من الـكتاب) .

١٥ — يطلق اسم الفيدا Veda على كل كتاب من كتب الهندوس الأربعة المقدسة القديمة وهى Rig و Yajur و Sama و Atharva-veda (أنظر لفظ Veda فى the Oxford Dictionary) — راجع ص ١١٢ من الـكتاب) .

١٦ — دين زردشت هو المجوسية أى عبادة النار وهو بذلك أصل البرسية (راجع ص ٥٥ من الـكتاب — المترجم) .

١٧ — المانوية هى دين مانى ويتضح مما كتبه عنها ابن النديم فى كتابه الفهرست أن مركزها كان فى بابل وأنها انتشرت فى إيران منذ قديم الزمن وظل لها بعض الأتباع فى العهد الإسلامى وأساسها الاعتقاد بوجود إلهى النور والظلمة وهى فى هذا تشبه الديصانية الأقدم منها ، وقد كان أتباع المانوية يعظمون من الأيام الأحد والاثنين ويصلون أربع صلوات كل يوم فى وقت الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويصومون ثلاثين يوما فى وقت معين من كل سنة ، وهم يختلفون عن المزدكية إختلافا كبيراً لأنهم يحرمون أكل اللحم وملامسة النساء أى أنهم يميلون إلى تهذيب النفس بالحرمان فى حين أن المزدكية يتبعون

آراء إباحية اشتراكية فيما يختص بالنساء والأموال (راجع ص ٥٥ من الكتاب — المترجم) .

١٨ — جاء فى كتاب الفهرست لابن النديم عند الكلام على شريعة المانوية (يسميهم ابن النديم المنانية) : « وفرض (يقصد مانى) صلوات أربع أو سبع وهو أن يقوم الرجل فيمسح بالماء الجارى أو غيره ويستقبل النير الأعظم قائما ثم يسجد ويقول فى سجوده : مبارك هادينا الفار قليط رسول النور ومبارك ملائكته الحفظة ومسبح جنوده النيرون . يقول هذا وهو يسجد ويقوم ولا يلبث فى سجوده ويكون منتصبا (وجاء بعد ذلك أنه يسجد اثنتى عشرة سجدة وصيغة ما يقوله فى كل سجدة حتى السادسة) ... فأما الصلاة الأولى فعند الزوال والصلاة الثانية بين الزوال وغروب الشمس ثم صلاة المغرب بعد غروب الشمس ثم صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات . ويفعل فى كل صلاة وسجدة مثل ما فعل فى الصلاة الأولى وهى صلاة البشير . فأما الصوم فإذا نزلت الشمس القوس وصار القمر نورا كله يصام يومين لا يفطر بينهما فإذا أهل الهلال يصام يومين لا يفطر بينهما ثم من بعد ذلك يصام إذا صار نورا يومين فى الجدى ثم إذا أهل الهلال ونزلت الشمس الدلو ومضى من الشهر ثمانية أيام يصام حينئذ ثلاثين يوما يفطر كل يوم عند غروب الشمس ... » — ابن النديم : الفهرست ص ٣٦٥ — ٦ ، ومن هذا يتضح أن الصلاة بسجداتها على ما هو معروف عند المسلمين والوضوء السابق للصلاة والصيام لمدة ثلاثين يوما بما يتبعه من إفطار بعد غروب الشمس كل هذه كانت موجودة عند المانوية .

(راجع ص ٥٨ من الكتاب — المترجم)

١٩ - العنبسيس هو كتاب زنوفون الذى وصف فيه حملة كورش الصغير على أخيه ارتكزركسيس منيمون (راجع ص٨٢ من الكتاب - المترجم).

٢٠ - Huzvaresh وتذكر أيضا Huzwaresh و Huzuresh ويقال إن معناها عالم باللغات كما تطلق أيضا على الجزء السامى الذى يوجد فى اللغة البهلوية وهى الفارسية التى كانت مستعملة فى عهـــد الأرسقيين Arsacids والساسانيين (راجع اللفظ فى La Grande Encyclopydie وفى Larousse Dictionnaire Universel (راجع ص ٥٦ من الكتاب - المترجم)

٢١ - الأبيونيون Ebionites هم طائفة من الطوائف المسيحيـة التى اشتهرت بإلحادها وخروجها على الدين الصحيح ، وقد ذكر البعض أنهم ينسبون إلى شخص اسمه ابيون Ebion كان تلميذا لكيرنث Cérinthe وجسم أخطاءه ونشر تعاليمه فى آسيا وروما وقبرس ، على أن هـذا القول لا يقبل فى الوقت الحاضر وهناك رأى آخر يقول بأنهم ينسبون إلى كلمة ابيونيم العبرانية ومعناها قوم فقراء . وهناك عدة تفسيرات لهذا الرأى منها أنهم ربما نسبوا أنفسهم إلى الفقر لأنهم كانوا يفخرون به ومنها أن المسيحيين الآخرين ربما أطلقوا عليهم هـذا الإسم على اعتبار أنهم فقراء فى الفكر وفى الدين وفى المسيحية ومنها كذلك أن اليهود ربما كانوا هم الذين أطلقوا هـذا الاسم عليهم لأنهم كانوا فقراء فعلا . وقد يكون التفسير الأخـير هو الصحيح لأن الكلمة التى اشتق منها اسمهم عبرية على ما ذكرنا .

وقد كان الأبيونيون يسكنون المنطقة المحيطة بأورشليم بصفة خاصة ، وكان ظهورهم فى المسيحية منذ أول نشأتها ، ويبدو أنهم ظلوا حتى القرن الرابع الميلادى طائفة مسيحية غير متميزة عن غيرها تمام التميز بدليل أن كتاب المسيحية كانوا يخلطون فى كلامهم بينهم وبين طائفـة مسيحية أخرى هى طائفة الناصرية Nazaréens .

والمعروف عن آراء الأبيونيين أنهم كانوا مسيحيين متهودين يحافظون على قوانين اليهود وتعاليمهم وتقاليدهم ، قبلوا المسيح على اعتبار أنه هو موسى قد بعث من جديد ، وقد قال ابيفانوس أنهم كانوا يعتقدون أن يسوع هو تجسد روح هام أسمى مقاما من الملائكة أتى لكى يذيع الناموس الذى كان موسى قد أذاعه وكان ناموس الحق والصدق الذى أعطى لأبينا آدم ، وكانوا يقبلون العهد القديم بتمامه ويرفضون العهد الجديد ويستغنون عنه بانجيل مؤسس على الحوادث المدرجة فى انجيل سماه المسيحيون الأولون انجيل العبرانيين ، وكانوا ينكرون لاهوت المسيح ويذكرون أنه ولد من مريم ويوسف النجار كسائر الناس وأنه كان انسانا محضا ، وكانوا يحافظون كاليهود على الختان ويحافظون على أن يكون اليوم السابع من الأسبوع سبتا . على أنهم تشبهوا بالمسيحيين فى الوقت نفسه فكانوا يستعملون المعمودية والعشاء الربانى ويرون أن المسيح ابن الله رغم أنه إنسان وأن الله اختاره إبنا له للفضائل الكثيرة التى كان يتحلى بها .

على أنهم فيما يختص بولادة المسيح وطريقة اتحاده باللاهوت كانوا منقسمين فيما بينهم وقد زادوا — على ما يقال — اعتدالا فى آخر أيامهم . ويقال إنهم كانوا يبيحون تعدد الزوجات .

وقد جاء فى « دائرة معارف الدين والأخلاق » أن الأبيونيين خرجوا عن اليهودية الصحيحة ولكنهم لم يدخلوا فى الكاثوليكية الصحيحة وأنهم كانوا مسيحيين يهودا إلى حد ما ولكن مسيحيتهم كانت اسمية وكانت بعيدة عن الدين الصحيح ، وبمرور الزمن إزدادت نزعتها الإلحادية شيئا فشيئا حتى إذا كان القرن الخامس الميلادى أصبحت معدومة .

أنظر لفظ Ebionism فى Encyc. of Religion & Ethics ولفظى Ebion و Ebionite فى Larousse Dict. Universel ولفظ « الأبيونيون » فى « دائرة معارف البستانى » (راجع ص ٥٨ من الكتاب — المترجم) .

تصحيح الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	هامش ٦	Goldgiher	Goldziher
٢٦	هامش ٢	Ehristiaı ity	Christianity
٣٣	١٣	الله	لله
٣٣	هامش ١	ببنكيتور	ببنكپور
٣٧	١٢	ضيعة	ضيعه
٤٣	٩	للهجرة	للهجرة (١)
٤٦	٧	أو من	أول من
٤٦	هامش ١	,h. 62	,p. 62
٤٨	١٣	والجند والعرب	الجند العرب
٤٨	١٤	فتديع	فتدفع
٦٦	٢	الخلفاه	الخلفاء
٧٠	٢٠	كنة	كنه
٧٧	٤	يمث	يمت
٩٨	٩	هارون المأمون	هارون والمأمون
١٠٦	هامش ٤	مرجليوت	مرجليوث
١٠٨	هامش ١	كاوص	كاوس
»	»	أحكام	حكام
١١١	هامش ١	كتات	كتاب
١١٨	١٥	أى يتزهما	أى ببرهما
١٣٢	١١	ولكن	ولكى
١٣٣	١	الخفة	الخليفة
١٥٣	٢	لكتمه	كتمه
١٥٥	١	العهارة	العبارة